المبحث الثاني
أحداث غزوة بني قريظة

نَيْلُ اليهود من الذات النبوية الكريمة:

يقول د/ هيكل: «ومع ما كان عليه المسلمون من نَصَب بعد طول حصار قريش وغطفان إياهم، فقد خفوا لهذا القتال الذي لم يكن لديهم أي شك في نتيجته، صحيح أن بني قريظة يقيمون في حصون محصنة كالتي كانت لبني النضير، لكن هذه الحصون إن أغنتهم في الدفاع عن أنفسهم فلن تغنيهم في مهاجمة المسلمين، والميرة قد أصبحت في متناول أيدي أهل المدينة بعد جلاء الأحزاب عنها؛ لذلك خف المسلمون فرحين وراء علي ﷺ، حتى أتوا بني قريظة، فإذا بهم ومعهم حيي بن أخطب النضيري يقعون في محمد ﷺ بأقبح مقالة، يكذِّبونه ويطعنون عليه وينالون من أعراض نسائه، وكأنما شعروا بعد انخذال الأحزاب عن المدينة بما هُيئ لهم». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤٧].

وعندما نظر يهود بني قريظة إلى طلائع الجيش النبوي تتقدم نحو معاقلهم بقيادة علي بن أبي طالب ﷺ، فاضت نفوسهم الشريرة ببعض ما تختزنه من خبث ودناءة ووضاعة.

فقد أسمعوا ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب ﷺ في نبي الله ﷺ ونسائه الطيبات الطاهرات من السبِّ والشتم والقذف ما لم يسمح أحد من المؤرخين لنفسه بأن يورد نصه لفظاعته وبشاعته.

ومع هذا فلم يرد المسلمون على هؤلاء اليهود السفهاء، بل التزموا الصمت، وكان الجواب الذي سمعه اليهود على شتمهم للنبي ﷺ ونسائه الطيبات، وكان ردهم: **السَّيْفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**.

ولم يرد المسلمون على الشتم بمثله؛ لأنهم يسيرون في معاملتهم للناس (أيًّا كانوا) حسب توجيه القرآن وتأديبه، وليس من آداب القرآن أن يقابل المسلم فاحش القول بمثله.

غير أن علي بن أبي طالب ﷺ ـ وهو أول من سبق باللواء إلى بني قريظة ـ أشفق على الرسول ﷺ من أن يسمع في نفسه وفي نسائه ذلك السب القبيح.

قَالَ البيهقي: وَلَـمَّا رَأَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ رَسُولَ الله ﷺ مُقْبِلًا تَلَقَّاهُ وَقَالَ: «**ارْجِعْ يَا رَسُولَ الله، فَإِنَّ اللهَ كَافِيكَ اليَهُودَ**»، وَكَانَ عَلِيٌّ ﷺ سَمِعَ مِنْهُمْ قَوْلًا سَيِّئًا لِرَسُولِ الله ﷺ وَأَزْوَاجِهِ، فَكَرِهَ عَلِيٌّ ﷺ أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ رَسُولُ الله ﷺ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**لِمَ تَأْمُرُنِي بِالرُّجُوعِ؟**» فَكَتَمَهُ مَا سَمِعَ مِنْهُمْ، فَقَالَ: «**أَظُنُّكَ سَمِعْتَ لِيَ مِنْهُمْ أَذًى، فَامْضِ فَإِنَّ أَعْدَاءَ الله لَوْ قَدْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا شَيْئًا مِمَّا سَمِعْتَ**».

[دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٣].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَدَّمَ رَسُولُ الله ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ بِرَايَتِهِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ وَابْتَدَرَهَا النَّاسُ، فَسَارَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ، حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَ الحُصُونِ سَمِعَ مِنْهَا مَقَالَةً قَبِيحَةً لِرَسُولِ الله ﷺ،

فَرَجَعَ حَتَّى لَقِيَ رَسُولَ الله ﷺ بِالطَّرِيقِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، لَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَدْنُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ الأَخَابِثِ، قَالَ: «لِمَ؟ أَظُنُّكَ سَمِعْتَ مِنْهُمْ لِي أَذًى؟»، قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «لَوْ رَأَوْنِي لَمْ يَقُولُوا مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ:... عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ قَالَ: انْتَهَيْنَا إِلَيْهِمْ فَلَمَّا رَأَوْنَا أَيْقَنُوا بِالشَّرِّ، وَعَرَزَ عَلِيٌّ ﷺ الرَّايَةَ عِنْدَ أَصْلِ الحِصْنِ، فَاسْتَقْبَلُونَا فِي صَيَاصِيهِمْ يَشْتُمُونَ رَسُولَ الله ﷺ وَأَزْوَاجَهُ.

قَالَ أَبُو قَتَادَةَ: وَسَكَتْنَا، وَقُلْنَا: السَّيْفُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٩].

تبرؤ أسيد بن حضير ﷺ من عهد اليهود:

قَالَ الوَاقِدِيُّ:... عَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ قَالَ: وَطَلَعَ رَسُولُ الله ﷺ فَلَمَّا رَآهُ عَلِيٌّ ﷺ رَجَعَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَأَمَرَنِي أَنْ أَلْزَمَ اللِّوَاءَ فَلَزِمْتُهُ، وَكَرِهَ أَنْ يَسْمَعَ رَسُولُ الله ﷺ أَذَاهُمْ وَشَتْمَهُمْ، فَسَارَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ، وَتَقَدَّمَهُ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ ﷺ فَقَالَ: يَا أَعْدَاءَ الله لَا نَبْرَحُ حِصْنَكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا جُوعًا، إِنَّمَا أَنْتُمْ بِمَنْزِلَةِ ثَعْلَبٍ فِي جُحْرٍ.

قَالُوا: يَا ابْنَ الحُضَيْرِ، نَحْنُ مَوَالِيكُمْ دُونَ الخَزْرَجِ، وَخَارُوا.

وَقَالَ: لَا عَهْدَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَلَا إِلَّ. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٩].

النبي القائد ﷺ في ديار قريظة وحديثه معهم:

واصل الرسول القائد ﷺ تقدمه نحو حصون اليهود تحيط به هيئة أركان حربه من صفوة أصحابه، حتى دنا من حصون قريظة الغادرة.

فَلَمَّا نَزَلَ رَسُولُ الله ﷺ بِحِصْنِهِمْ، وَكَانُوا فِي أَعْلَاهُ، نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ نَفَرًا مِنْ أَشْرَافِهَا، حَتَّى أَسْمَعَهُمْ فَقَالَ: «أَجِيبُونَا يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، يَا إِخْوَةَ القِرَدَةِ، قَدْ نَزَلَ بِكُمْ خِزْيُ الله».

[دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٣].

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَلَمَّا أَتَى رَسُولُ الله ﷺ بَنِي قُرَيْظَةَ نَزَلَ عَلَى بِئْرٍ مِنْ آبَارِهَا مِنْ نَاحِيَةِ أَمْوَالِهِمْ يُقَالُ لَهَا بِئْرُ: أَنَا. قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: بِئْرُ آنَا (من آبار بني قريظة).

فَلَمَّا دَنَا رَسُولُ الله ﷺ مِنْ حُصُونِهِمْ قَالَ ﷺ: «يَا إِخْوَانَ القِرَدَةِ، هَلْ أَخْزَاكُمُ الله وَأَنْزَلَ بِكُمْ نِقْمَتَهُ؟»، قَالُوا: يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالَ أَبُو قَتَادَةَ:... وَدَنَا رَسُولُ الله ﷺ مِنْهُمْ وَتَرَسْنَا عَنْهُ فَقَالَ: «يَا إِخْوَةَ القِرَدَةِ وَالخَنَازِيرِ وَعَبَدَةَ الطَّوَاغِيتِ أَتَشْتُمُونَنِي؟» قَالَ: فَجَعَلُوا يَحْلِفُونَ بِالتَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى: مَا فَعَلْنَا، وَيَقُولُونَ: يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا. [المغازي للواقدي ٢/ ٤٩٩-٥٠٠].

يقول أ/ باشميل: «لقد أدركتْ اليهود طبيعتهم: سفاهة واعتداء وغدرًا وتطاولًا إذا قدروا، واستكانة وتلطفًا ووداعة إذا عجزوا، فعندما رأوا الرسول القائد ﷺ تحيطه هيئة أركان حربه وقد

اتخذت كتائبه مواقعها حول الحصون، تأكد لديهم تصميم المسلمين على الإيقاع بهم ومحاسبتهم على ما ارتكبوا من فظيع الغدر وشنيع الخيانة، فأسقط في أيديهم فصاروا يترددون إلى الرسول القائد ﷺ.

فقد أنكروا، أن يكونوا شتموه ونساءه، وانطلقوا يحلفون كذبًا أنهم ما فاهوا بشيء مما بلغه بهذا الشأن، ثم اندفعوا ـ في ليونة الأفاعي ـ يُسمعون رسول الله ﷺ من لين القول وطيب الكلام وجميل الإطراء، ما ظنوا، أنه سيساهم في تخفيف عقوبة خيانتهم العظمى التي صممت قيادة المدينة على إنزالها بهم.

فقد قال هؤلاء اليهود لرسول الله ﷺ: **يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا**، وغير ذلك من الكلام المغلف بالطيبة والوداعة.

طبيعة اليهود التي لا تتغير:

وهذه هي جبلة اليهود وخلتهم المتغلغلة في نفوسهم أبد الدهر، لا يتورعون عن ارتكاب أية جريمة ـ مهما كانت بشاعتها ـ إذا ما قدروا.

ولا يخجلون من أن يقفوا موقف الحليم الواعظ الوديع البريء، يذكِّرون بالحلم والصفح إذا ما أحاطت بهم خطيئتهم وأدركهم الوهن، وكان التذكير والوعظ في صالحهم، أما إذا لم يكن في ذلك فائدة لهم، فإنهم أول من يسخر بالمُثل ويهزأ بالقيم.

فها هم ـ وقبل أن يصل إليهم القائد الأعلى النبي ﷺ بدقائق معدودات ـ يشتمون ويسبون ويهددون ويتوعدون، ظانين أنهم مانعتهم حصونهم ولكنهم ـ وبعد دقائق معدودات مما فاهوا به من فاحش القول ـ إذا بهم يرون القائد الأعلى النبي ﷺ ـ الذي سلكوا كل درب من دروب الغدر والخيانة والنكث للقضاء عليه وعلى أمته ـ قد أحاطتهم كتائبه المظفرة من كل جانب، فلجأوا إلى المكر والخديعة، واندفعوا يذكِّرون القائد المنتصر عليهم بما يمتاز به من حلم وعلم في عبارات كلها مدح وإطراء وتودد طمعًا في التأثير عليه ليعفو عنهم.

ولكن هؤلاء اليهود وقفوا ساعتئذ موقف الواعظ الوديع المستكين البريء، نسوا ـ أو قل تناسوا ـ أنهم قد ضربوا بكل القيم الإنسانية والمثل الأخلاقية عرض الحائط، وداسوا العهود والمواثيق بأرجلهم في خسة ونذالة عندما رأوا جيوش الأحزاب الجرارة تحيط بالقلة المسلمة إحاطة البحر الهائج بالجزيرة الصغيرة من كل جانب، فأعلنوا الترحيب بهذه الجيوش الغازية الباغية وأعلنوا الانضمام إليها ضد المسلمين الذين تربطهم بهم رابطة حلف عسكري متين، هي معاهدة الدفاع المشترك.

نعم تناسى هؤلاء اليهود أنهم عندما جاءهم الوفد النبوي في تلك الساعات الحاسمة يطلب منهم القيام بالتزاماتهم العسكرية مع المسلمين ضد الغزاة، كما تُلزمهم بذلك نصوص معاهدة الدفاع المشترك بينهم وبين المسلمين، تناسوا أنهم لم يكتفوا في تلك اللحظات الحرجة بمخالفة نصوص

المعاهدة بتوقفهم عن مساندة حلفائهم المسلمين بل أنكروا ـ في وقاحة وصفاقة ـ أن يكون بينهم وبين النبي ﷺ أي حلف أو عهد.

نعم نسي هؤلاء اليهود الذين يطلبون الرحمة ويذكِّرون بالحلم، أن جوابهم لرئيس الوفد النبوي الذي جاء إليهم يطلب تنفيذ المعاهدة، كان تجاهل وجود النبي ﷺ ذاته حيث قالوا ـ وقد ظنوا أن المسلمين قد انتهى أمرهم: ومن هو رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد.

نعم تناسى هؤلاء اليهود أنهم في الوقت الذي بلغت فيه قلوب المسلمين الحناجر من شدة الحصار، قد تفجرت في نفوسهم ينابيع الخسة والغدر، فاغتنموا اشتداد محنة المسلمين فسارعوا إلى إحكام حلقاتها، فانضموا إلى جيوش الغزاة ـ بالرغم من العهد الذي بينهم وبين المسلمين ـ مستهدفين بعملهم الدنيء هذا استعجال إبادة المسلمين ومحو كيانهم من الوجود، ظنًا منهم أن تلك الأيام العصيبة هي الأيام الأخيرة للكيان الإسلامي الذي كان هؤلاء اليهود يعتقدون أن جيوش الأحزاب العظيمة لن تعود إلى بلادهم إلا بعد تحطيم هذا الكيان.

والآن وقد دحر الله جيوش الأحزاب الغازية وتبددت الأحلام العريضة التي كانت تحملها قريظة، وجاءت كتائب القرآن لتصفي الحساب مع هؤلاء الخونة الغادرين الناكثين، عرفت ألسنتهم الطريق إلى الحديث عن القيم الإنسانية والمثل الأخلاقية، وأخذت الأفاعي السامة الغادرة تتظاهر بالبراءة والطيبة، وتبدي مظهرها الناعم اللين: «**يَا أَبَا القَاسِمِ مَا كُنْتَ جَهُولًا**».

هكذا قالت قريظة الغدر والخيانة عندما أحاطت بها خطيئتها وحاق بها مكرها السيء، فوجدت حصونها الشامخة غارقة في بحور متلاطمة من جند الإسلام الحانقين الذين بلغت في نفوسهم مشاعر الغيظ حد الغليان على هؤلاء اليهود الذين ما كانوا ليترددوا لحظة في سحق المسلمين سحقًا كاملًا لو تمكنوا من ذلك، فقد كان هذا غاية مرادهم عندما نقضوا الحلف وخانوا العهد، ولكن الله غالب على أمره، فقد أبى الله ﷻ إلا أن ينصر عبده ويعز جنده ويهزم الأحزاب وحده.

فها هم اليهود من قريظة الخائنة يتعثرون في دروب الحسرة والندامة، ويسيرون نحو المصير المرعب الذي أرادوه للمسلمين وسعوا جهدهم للدفع بهم إليه... ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله».

[غزوة الأحزاب لباشميل ١٥٣-١٥٦].

فرض الحصار على اليهود:

يقول أ/ باشميل: «وتتابعت كتائب الإسلام بقيادة الرسول ﷺ حتى أحاطت بمعاقل بني قريظة وطوقتها من كل مكان.

ويظهر أن زحف المسلمين على بني قريظة كان على غير تعبئة حيث ثبت أنهم كانوا يتجهون نحو اليهود جماعات، فلم يكونوا في هذه الحركة جيشًا واحدًا يمشي على تعبئة بساقة ومجنبة ومقدمة، كما هو الحال في كل الحملات التي كان النبي ﷺ يقودها.

ويظهر أن السبب في ذلك هو قِصر المسافة التي لا يخشى فيها المسلمون أية مباغتة من عدو أو كمين ينصب لهم؛ لأن كل المنطقة التي قطعوها إلى بني قريظة أراض إسلامية صرفة».

[غزوة بني قريظة لباشميل ١٥٤-١٥٥].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَاجْتَمَعَ الـمُسْلِمُونَ عِنْدَ رَسُولِ الله ﷺ عِشَاءً، فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُصَلِّ حَتَّى جَاءَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ صَلَّى، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ الله ﷺ فَمَا عَابَ عَلَى أَحَدٍ صَلَّى، وَلا عَلَى أَحَدٍ لَمْ يُصَلِّ حَتَّى بَلَغَ بَنِي قُرَيْظَةَ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٠].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ:... عَنْ مَعْبَدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ السُّلَمِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ حَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ (وقيل: خمس عشرة ليلة، وقيل: بضع عشرة. (راجع الطبقات وشرح المواهب) لَيْلَةً حَتَّى جَهِدَهُمْ الحِصَارُ، وَقَذَفَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ.

وَقَدْ كَانَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ دَخَلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي حِصْنِهِمْ حِينَ رَجَعَتْ عَنْهُمْ قُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ، وَفَاءً لِكَعْبِ بْنِ أَسَدٍ بِمَا كَانَ عَاهَدَهُ عَلَيْهِ. [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٥، دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٥].

الترامي بين الفريقين:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: ثُمَّ قَدَّمَ رَسُولُ الله ﷺ الرُّمَاةَ مِنْ أَصْحَابِهِ.

فَحَدَّثَنِي فَرْوَةُ بْنُ زُبَيْدٍ، عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ سَعْدٍ، عَنْ أَبِيهَا، قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا سَعْدُ تَقَدَّمَ فَارْمِهِمْ**»، فَتَقَدَّمْتُ حَيْثُ تَبْلُغُهُمْ نَبْلِي، وَمَعِي نَيِّفٌ عَلَى الخَمْسِينَ فَرَمَيْنَاهُمْ سَاعَةً، وَكَأَنَّ نَبْلَنَا مِثْلُ جَرَادٍ فَانْجَحَرُوا فَلَمْ يَطْلُعْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، وَأَشْفَقْنَا عَلَى نَبْلِنَا أَنْ يَذْهَبَ فَجَعَلْنَا نَرْمِي بَعْضَهَا وَنُمْسِكُ البَعْضَ.

فَكَانَ كَعْبُ بْنُ عَمْرٍو الـمَازِنِيُّ ـ وَكَانَ رَامِيًا ـ يَقُولُ: **رَمَيْتُ يَوْمَئِذٍ بِمَا فِي كِنَانَتِي، حَتَّى أَمْسَكْنَا عَنْهُمْ بَعْدَ أَنْ ذَهَبَتْ سَاعَةٌ مِنَ اللَّيْلِ**.

قَالَ: وَقَدْ رَمَوْنَا وَرَسُولُ الله ﷺ وَاقِفٌ عَلَى فَرَسِهِ عَلَيْهِ السِّلاحُ وَأَصْحَابُ الخَيْلِ حَوْلَهُ، ثُمَّ أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ فَانْصَرَفْنَا إِلَى مَنْزِلِنَا وَعَسْكَرْنَا فَبِتْنَا.

ثُمَّ غَدَوْنَا عَلَيْهِمْ بِسُحْرَةٍ، فَقَدَّمَ رَسُولُ الله ﷺ الرُّمَاةَ، وَعَبَّأَ أَصْحَابَهُ فَأَحَاطُوا بِحُصُونِهِمْ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، فَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يُرَامُونَهُمْ بِالنَّبْلِ وَالحِجَارَةِ، وَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ يَعْتَقِبُونَ فَيَعْقِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَمَا بَرِحَ رَسُولُ الله ﷺ يُرَامِيهِمْ حَتَّى أَيْقَنُوا بِالهَلَكَةِ.

وعَنْ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: كَانُوا يُرَامُونَنَا مِنْ حُصُونِهِمْ بِالنَّبْلِ وَالحِجَارَةِ أَشَدَّ الرَّمْيِ، وَكُنَّا نَقُومُ حَيْثُ تَبْلُغُهُمْ نَبْلُنَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٠ - ٥٠١].

قِمْ يَا زُبَيْرُ:

عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: قَالَ يَهُودِيٌّ يَوْمَ قُرَيْظَةَ: مَنْ يُبَارِزُ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «قِمْ يَا زُبَيْرُ» ، فَقَالَتْ صَفِيَّةُ: يَا رَسُولَ الله، وَاحِدِي؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَيُّهُمَا عَلَا عَلَى صَاحِبِهِ قَتَلَهُ»، فَعَلَاهُ الزُّبَيْرُ فَقَتَلَهُ، فَنَفَّلَهُ النَّبِيُّ ﷺ سَلَبَهُ. [السنن الكبرى للبيهقي ٦/ ٥٠٣ كتاب قسم الفيء والغنيمة رقم ١٢٧٧٤، وقال البيهقي: هَذَا مُرْسَلٌ، وَقَدْ رُوِيَ مَوْصُولًا بِذِكْرِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِيهِ].

نعم الطعام التمر:

قَالَ الوَاقِدِيُّ: قال كَعْبُ بْنُ عَمْرٍو الـمَازِنِيُّ ﷺ: وَكَانَ طَعَامُنَا تَمْرًا بَعَثَ بِهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ ﷺ أَحْمَالَ تَمْرٍ فَبِتْنَا نَأْكُلُ مِنْهَا، وَلَقَدْ رُئِيَ رَسُولُ الله ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ﷺ يَأْكُلُونَ مِنْ ذَلِكَ التَّمْرِ وَرَسُولُ الله ﷺ يَقُولُ: «نِعْمَ الطَّعَامُ التَّمْرُ». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٠].

محاولة عقلاء اليهود إنقاذ الموقف:

يقول أ/ باشميل: «ذكرنا في غزوة الأحزاب أن أربعة من عقلاء اليهود حذروا قومهم من مغبة نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين وطلبوا منهم عدم الاستجابة لوساوس شيطان بني النضير حيي بن أخطب، الذي حمل بني قريظة على نقض العهد وخيانة الميثاق.

وذكرنا أن هؤلاء العقلاء الأربعة ـ وعلى رأسهم عمرو بن سعدى أخو بني قريظة أنفسهم ـ قد أبوا الاشتراك في جريمة خيانة المسلمين والغدر بهم، وأعلنوا للملأ أنهم باقون على عهدهم، وذكرنا أن ثلاثة منهم قد أسلموا، وأن الرابع ـ هو عمرو بن سعدى، سيد من ساداتهم ـ بقي على يهوديته ولكنه بقي على عهده وأعلن تمسكه بالميثاق الذي بين المسلمين واليهود، وأبى الغدر بالمسلمين.

وقد حاول هذا اليهودي الزعيم الوفي أن ينقذ قومه من المصير المرعب الذي كان ينتظرهم جزاء غدرهم وخيانتهم، وذلك بأن اقترح عليهم اتباع النبي ﷺ والدخول في الإسلام.

لا سيما وأنهم يعلمون أن محمدًا ﷺ نبي مرسل، كما هو مكتوب عندهم في التوراة.

زعيم يهودي يدعو قومه للدخول في الإسلام:

فعندما بلغ عمرو بن سعدى انسحاب الأحزاب، جاء إلى قومه بني قريظة ودعاهم إلى اجتماع عاجل، وذلك قبل وصول جيش النبي ﷺ لضرب الحصار عليهم.

وفي هذا الاجتماع الذي حضره كل زعماء بني قريظة، وقف هذا اليهودي العاقل، وجعل يؤنب قومه، ويوبخهم على نقضهم العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وذكَّرهم بما نصحهم به قبل إقدامهم على جريمة الخيانة». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٥٦-١٥٧].

روى البيهقي بسنده عن مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ الوَاقِدِيُّ ، قَالَ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، قَالَ: لَـمَّا خَرَجَتْ بَنُو النَّضِيرِ مِنَ الـمَدِينَةِ أَقْبَلَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى فَأَطَافَ بِمَنَازِلِهِمْ، فَرَأَى خَرَابَهَا، وَفَكَّرَ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ فَوَجَدَهُمْ فِي الكَنِيسَةِ، فَنَفَخَ فِي بُوقِهِمْ، فَاجْتَمَعُوا، فَقَالَ الزُّبَيرُ بْنُ بَاطَا: يَا أَبَا سَعِيدٍ، أَيْنَ كُنْتَ مُنْذُ اليَوْمِ لَمْ نَرَكَ؟ وَكَانَ لَا يُفَارِقُ الكَنِيسَةَ، وَكَانَ يَتَأَلَّهُ (يتعبد) فِي اليَهُودِيَّةِ، قَالَ: **رَأَيْتُ اليَوْمَ عِبَرًا قَدْ عُبِّرْنَا بِهَا** (اشتد علينا أمرها)، **رَأَيْتُ مَنَازِلَ إِخْوَانِنَا خَالِيَةً بَعْدَ ذَلِكَ العِزِّ وَالجَلَدِ** (القوة) **وَالشَّرَفِ الفَاضِلِ، وَالعَقْلِ البَارِعِ، قَدْ تَرَكُوا أَمْوَالَهُمْ، وَمَلَكَهَا غَيْرُهُمْ، وَخَرَجُوا خُرُوجَ ذُلٍّ، وَلَا وَالتَّوْرَاةِ مَا سُلِّطَ هَذَا عَلَى قَوْمٍ قَطُّ لله بِهِمْ حَاجَةٌ، وَقَدْ أَوْقَعَ قَبْلَ ذَلِكَ بِابْنِ الأَشْرَفِ ذِي عِزِّهِمْ، ثُمَّ بَيَّتَهُ فِي بَيْتِهِ آمِنًا، وَأَوْقَعَ بِابْنِ سُنَيْنَةَ سَيِّدِهِمْ، وَأَوْقَعَ بِبَنِي قَيْنُقَاعٍ فَأَجْلَاهُمْ** (أخرجهم وأبعدهم)، **وَهُمْ أَهْلُ جَدٍّ يَهُودَ** (الجد: المكانة العظيمة والغنى)، **كَانُوا أَهْلَ عِدَّةٍ وَسِلَاحٍ وَنَجْدَةٍ** (شجاعة)، **فَحَصَرَهُمْ فَلَمْ يُخْرِجْ إِنْسَانٌ مِنْهُمْ رَأْسَهُ حَتَّى سَبَاهُمْ، فَكُلِّمَ فِيهِمْ فَتَرَكَهُمْ عَلَى أَنْ أَجْلَاهُمْ مِنْ يَثْرِبَ، يَا قَوْمُ! قَدْ رَأَيْتُمْ مَا رَأَيْتُ فَأَطِيعُونِي، وَتَعَالَوْا نَتَّبِعْ مُحَمَّدًا، فَوَاللهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَقَدْ بَشَّرَنَا بِهِ وَبِأَمْرِهِ: ابْنُ الهَيَّبَانِ أَبُو عُمَيْرٍ، وَابْنُ حِرَاشٍ** [جَوَّاس]، **وَهُمَا أَعْلَمُ يَهُودَ، جَاءَا مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ يَتَوَكَّفَانِ قُدُومَهُ وَأَمَرَانَا بِاتِّبَاعِهِ، وَأَمَرَانَا أَنْ نُقْرِئَهُ مِنْهُمَا السَّلَامَ، ثُمَّ مَاتَا عَلَى دِينِهِمَا وَدَفَنَّاهُمَا بِحَرَّتِنَا هَذِهِ.**

فَأُسْكِتَ القَوْمُ، فَلَمْ يَتَكَلَّمْ مِنْهُمْ مُتَكَلِّمٌ، فَأَعَادَ هَذَا الكَلَامَ [أو نحوه]، وَخَوَّفَهُمْ بِالحَرْبِ وَالسِّبَاءِ وَالجَلَاءِ، فَقَالَ الزُّبَيرُ بْنُ بَاطَا: قَدْ وَالتَّوْرَاةِ قَرَأْتُ صِفَتَهُ فِي كِتَابِ بَاطَا التَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى، لَيْسَ فِي المَثَانِي الَّذِي أَحْدَثْنَا.

قَالَ: فَقَالَ لَهُ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ: مَا يَمْنَعُكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنِ اتِّبَاعِهِ؟ قَالَ: أَنْتَ، قَالَ كَعْبٌ: وَلِمَ؟ وَالتَّوْرَاةِ مَا حُلْتُ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَطُّ، قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنْتَ صَاحِبُ عَهْدِنَا وَعَقْدِنَا، فَإِنِ اتَّبَعْتَهُ اتَّبَعْنَاهُ، وَإِنْ أَبَيْتَ أَبَيْنَا.

[فَأَقْبَلَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى عَلَى كَعْبٍ فَقَالَ: أَمَا وَالتَّوْرَاةِ الَّتِي أُنْزِلَتْ عَلَى مُوسَى يَوْمَ طُورِ سِينَا إِنَّه لَلعِزُّ وَالشَّرَفُ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّهُ لَعَلَى مِنْهَاجِ مُوسَى، ويُنْزِلُ مَعَهُ وَأُمَّتُهُ غَدًا فِي الجَنَّةِ.

قَالَ كَعْبٌ: نُقِيمُ عَلَى عَهْدِنَا وَعَقْدِنَا فَلا يَخْفُرُ (ينقض عهدهم) لَنَا مُحَمَّدٌ ذِمَّةً، وَنَنْظُرُ مَا يَصْنَعُ حُيَيٌّ، فَقَدْ أُخْرِجَ إِخْرَاجَ ذُلٍّ وَصَغَارٍ، فَلا أَرَاهُ يَقِرُّ حَتَّى يَغْزُو مُحَمَّدًا، فَإِنْ ظَفِرَ بِمُحَمَّدٍ فَهُوَ مَا أَرَدْنَا، وَأَقَمْنَا عَلَى دِينِنَا، وَإِنْ ظَفِرَ بِحُيَيٍّ فَمَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ، وَتَحَوَّلْنَا مِنْ جِوَارِهِ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى: وَلِمَ نُؤَخِّرُ الأَمْرَ وَهُوَ مُقْبِلٌ؟ قَالَ كَعْبٌ: مَا عَلَى هَذَا فَوْقٌ، مَتَى أَرَدْتُ هَذَا مِنْ مُحَمَّدٍ أَجَابَنِي إِلَيْهِ.

قَالَ عَمْرُو: وَالتَّوْرَاةِ، إِنَّ عَلَيْهِ لَغَوْثًا، إِذَا سَارَ إِلَيْنَا مُحَمَّدٌ فَتَخَبَّأْنَا فِي حُصُونِنَا هَذِهِ الَّتِي قَدْ خَدَعَتْنَا، فَلَا نُفَارِقُ حُصُونَنَا حَتَّى نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِهِ، فَيَضْرِبُ أَعْنَاقَنَا].

فَأَقْبَلَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى عَلَى كَعْبٍ فَذَكَرَ مَا تَقَاوَلَا فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ قَالَ كَعْبٌ: مَا عِنْدِي فِي أَمْرِهِ إِلَّا مَا قُلْتُ، مَا تَطِيبُ نَفْسِي أَنْ أَصِيرَ تَابِعًا [لِقَوْلِ هَذَا الإِسْرَائِيلِيِّ، وَلا يَعْرِفُ لِي فَضْلَ النُّبُوَّةِ وَلا قَدْرَ الفِعَالِ.

قَالَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى: بَل لَعَمْرِي لَيَعْرِفَنَّ ذَلِكَ.

فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَرُعْهُمْ (يفزعهم) إِلا بِمُقَدِّمَةِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ حَلَّتْ بِسَاحَتِهِمْ، فَقَالَ: هَذَا الَّذِي قُلْتُ لَكَ.

وَذَلِكَ أَنَّهُم نَقَضُوا عَهْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَحَارَبُوهُ فِي وَقْعَةِ الخَنْدَقِ».

[دلائل النبوة للبيهقي ٣/ ٣٦١-٣٦٢، سبل الهدى والرشاد للصالحي ٤/ ٤٦٣-٤٦٥ وما بين المعكوفتين منه].

ومع كل هذا فقد رفض بنو قريظة نصيحة عمرو بن سعدى الذي دعاهم فيها إلى الدخول في الإسلام.

فتقدم إليهم ـ كمحاولة أخيرة ـ باقتراح آخر محاولًا إنقاذهم.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: حَدَّثَنِي الضَّحَّاكُ بْنُ عُثْمَانَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى بْنِ حِبَّانَ، قَالَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى ـ وَهُوَ رَجُلٌ مِنْهُمْ ـ: **يَا مَعْشَرَ اليَهُودِ! إِنَّكُمْ قَدْ حَالَفْتُمْ مُحَمَّدًا عَلَى مَا حَالَفْتُمُوهُ عَلَيْهِ أَلَّا تَنْصُرُوا عَلَيْهِ أَحَدًا مِنْ عَدُوِّهِ، وَأَنْ تَنْصُرُوهُ مِمَّنْ دَهَمَهُ، فَنَقَضْتُمْ ذَلِكَ العَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ فَلَمْ أَدْخُل فِيهِ، وَلَمْ أَشْرَكُمْ فِي غَدْرِكُمْ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا مَعَهُ فَاثْبُتُوا عَلَى اليَهُودِيَّةِ وَأَعْطُوا الجِزْيَةَ، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي يَقْبَلُهَا أَمْ لا.**

قَالُوا: نَحْنُ لا نُقِرُّ لِلعَرَبِ بِخَرْجٍ فِي رِقَابِنَا يَأْخُذُونَنَا بِهِ، القَتْلُ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ: فَإِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٣-٥٠٤].

اليهودي الذي نجاه الله بوفائه:

وهنا أدرك هذا اليهودي المتعقل عمرو بن سُعدى أن عناد قومه الأغبياء سوف يقودهم إلى الفناء دونما شك، فأعلن براءته منهم وفارقهم إلى الأبد.

فقد خرج هذا اليهودي ابن سعدى من حصون قومه بني قريظة بعد أن طوقها الجيش الإسلامي من كل مكان وكان خروجه ليلًا.

وعندما خرج هذا الزعيم اليهودي من حصون قومه مفارقًا لهم، التقى به رجال الحرس النبوي الذين كانوا يقومون بأعمال الدورية، فألقوا عليه القبض، ثم أتوا به إلى قائدهم محمد بن مسلمة الأنصاري ﷺ.

وعندما عرف قائد الحرس أنه عمرو بن سعدى ـ وكان موقفه النبيل قد بلغ المسلمين ـ أمر بإطلاق سراحه ليذهب حرًّا حيث شاء؛ لأنه لم يرتكب ما يوجب قتله أو حتى اعتقاله، حيث بقي على عهده ولم يدخل مع بني قريظة فيما دخلوا فيه من جريمة الغدر ونكث العهد.

قال ابن إسحاق يصف خروج عمرو بن سعدى من حصون بني قريظة مفارقًا لهم: وَخَرَجَ فِي تِلكَ اللَّيْلَةِ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى القُرَظِيُّ، فَمَرَّ بِحَرَسِ رَسُولِ الله ﷺ وَعَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ تِلكَ اللَّيْلَةَ فَلَـمَّا رَآهُ قَالَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: أَنَا عَمْرُو بْنُ سُعْدَى ـ وَكَانَ عَمْرٌو قَدْ أَبَى أَنْ يَدْخُلَ مَعَ بَنِي قُرَيْظَةَ فِي غَدْرِهِمْ بِرَسُولِ الله ﷺ، وَقَالَ: **لَا أَغْدِرُ بِمُحَمَّدٍ أَبَدًا** ـ فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ حِينَ عَرَفَهُ: **اللَّهُمَّ لَا تُحْرِمْنِي إِقَالَةَ عَثَرَاتِ الكِرَامِ**، ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ، فَخَرَجَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أَتَى بَابَ مَسْجِدِ رَسُولِ الله ﷺ بِالمَدِينَةِ تِلكَ اللَّيْلَةَ، ثُمَّ ذَهَبَ فَلَمْ يُدْرَ أَيْنَ تَوَجَّهَ مِنَ الأَرْضِ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا، فَذُكِرَ لِرَسُولِ الله ﷺ شَأْنُهُ، فَقَالَ: «**ذَاكَ رَجُلٌ نَجَّاهُ اللهُ بِوَفَائِهِ**»، وَبَعْضُ النَّاسِ يَزْعُمُ أَنَّهُ كَانَ أُوثِقَ بِرُمَّةٍ (الحبل البالي) فِيمَنْ أُوثِقَ مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ حِينَ نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَصْبَحَتْ رُمَّتُهُ مُلقَاةً، وَلَا يُدْرَى أَيْنَ ذَهَبَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ فِيهِ تِلكَ المَقَالَةَ، وَاللهُ أَعْلَمُ أَيُّ ذَلِكَ كَانَ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٨-٢٣٩].

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى اليَهُودِيُّ فِي الأَسْرَى، فَلَـمَّا قَدِمُوا إِلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ فَقَدُوهُ، فَقَالَ ابْنُ عَمْرٍو: قَالُوا: وَاللهِ مَا نَرَاهُ، وَإِنَّ هَذِهِ لَرُمَّتُهُ الَّتِي كَانَ فِيهَا فَمَا نَدْرِي كَيْفَ انْفَلَتَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَفْلَتَنَا بِمَا عَلِمَ اللهُ فِي نَفْسِهِ**». [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٢٠].

والأول أقرب إلى منطق الإسلام، فلا يمكن أن يعتقل المسلمون رجلًا بقي على عهده وأبى الغدر بهم.

وقال الواقدي: «وَخَرَجَ فِي تِلكَ اللَّيْلَةِ مَعَ بَنِي سَعِيَّةَ فَمَرَّ بِحَرَسِ النَّبِيِّ ﷺ وَعَلَيْهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ، فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالَ: عَمْرُو بْنُ سُعْدَى، فَقَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ: مُرَّ، **اللَّهُمَّ لا تُحْرِمْنِي إِقَالَةَ عَثَرَاتِ الكِرَامِ**، فَخَلَّى سَبِيلَهُ، وَخَرَجَ حَتَّى أَتَى مَسْجِدَ رَسُولِ الله ﷺ فَبَاتَ بِهِ حَتَّى أَصْبَحَ، فَلَـمَّا أَصْبَحَ غَدَا فَلَمْ يُدْرَ أَيْنَ هُوَ حَتَّى السَّاعَةِ، فَسُئِلَ رَسُولُ الله ﷺ عَنْهُ فَقَالَ: «**ذَلِكَ رَجُلٌ نَجَّاهُ اللهُ بِوَفَائِهِ**».

وَيُقَالُ: إِنَّهُ لَمْ يَطْلُعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ، وَلَمْ يُبَادِرْ لِلقِتَالِ فِي رِوَايَتِنَا.

حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ جَعْفَرٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: مَرَّ عَمْرُو بْنُ سُعْدَى عَلَى الحَرَسِ فَنَادَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: عَمْرُو بْنُ سُعْدَى، قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ: قَدْ عَرَفْنَاكَ، ثُمَّ قَالَ مُحَمَّدٌ ﷺ: **اللَّهُمَّ لا تُحْرِمْنِي إِقَالَةَ عَثَرَاتِ الكِرَامِ**. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٣-٥٠٤].

وهكذا أطلق الحرس النبوي سراح الزعيم عمرو بن سعدى مع أنه خرج من حصون قومه بني قريظة وكان لا يزال على يهوديته.

وبدهي ألا يتعرض المسلمون لعمرو بن سعدى اليهودي بأي أذى؛ لأن القصد من ضرب الحصار على يهود بني قريظة وإعلان الحرب عليهم، لا لأنهم يهود لا يدينون بالإسلام.

كلا وإنما لأنهم غدروا، وارتكبوا ـ في ظروف حربية دقيقة للغاية ـ الخيانة العظمى التي عقوبتها في كل قوانين الدنيا الموت.

وما دام أن هذا اليهودي ابن سعدى لم يشترك مع قومه في جريمة الغدر ونقض العهد، فإن تركه وشأنه حرًّا، وعدم التعرض له بأي أذى إنما هو ترجمة فعلية لأحد مبادئ الإسلام العادلة المنبثقة من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام:١٦٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾[البقرة].

مقاومة اليهود واشتداد الحصار عليهم:

استمرت قريظة في غيها ورفضت كل الاقتراحات التي تقدم بها عمرو بن سعدى لحقن دمائها، فاعتصمت بحصونها مصممة على القتال والمقاومة.

أما المسلمون فقد أحكموا الحصار حول الحصون وقاموا بتطويقها من كل جانب، وقطعت الجيوش الإسلامية كل اتصال بين اليهود وبين الخارج، ووضعت القوات الإسلامية أيديها على كل مزارعهم ونخيلهم الواقعة خارج حصونهم.

قَالَ الوَاقِدِيُّ: ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﷺ: حَصَرْنَاهُمْ أَشَدَّ الحِصَارِ، فَلَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ غَدَوْنَا عَلَيْهِمْ قَبْلَ الفَجْرِ، فَجَعَلنَا نَدْنُو مِنْ الحِصْنِ، وَنَرْمِيهِمْ مِنْ كَثَبٍ، وَلَزِمْنَا حُصُونَهُمْ فَلَمْ نُفَارِقْهَا حَتَّى أَمْسَيْنَا، وَحَضَّنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى الجِهَادِ وَالصَّبْرِ، ثُمَّ بِتْنَا عَلَى حُصُونِهِمْ مَا رَجَعْنَا إِلَى مُعَسْكَرِنَا حَتَّى تَرَكُوا قِتَالَنَا وَأَمْسَكُوا عَنْهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠١].

مقر قيادة الرسول ﷺ أثناء الحصار:

يقول أ/ باشميل: «وقد نزل الرسول ﷺ أثناء ضرب الحصار على بني قريظة ـ على بئر من آبارهم يقال له: بئر أنا، وجعل مقر قيادته هناك.

ولقد كانت مقاومة اليهود للحصار أول الأمر شديدة، ولكنهم بعد مرور حوالي عشرين ليلة على هذا الحصار بدأ الضعف والقلق يتسرب إلى نفوسهم، بعد أن أجهدهم الحصار وأيقنوا أن المسلمين ليسوا بمنصرفين عنهم حتى يستسلموا، أو يقتحموا عليهم حصونهم ويفتحوها بحد السلاح، فبالرغم من الإمكانيات المادية المتوفرة لديهم من مياه ومواد غذائية وسلاح كامل وحصون منيعة، تساعدهم على المقاومة وقتًا طويلًا، فقد امتلأت نفوسهم بالرعب والخوف والفزع، فخارت قواهم، وأخذوا يفكرون في الطريقة التي يمكنهم بها حقن دمائهم. [غزوة بني قريظة لباشميل ١٦٦].

اليهود يطلبون المفاوضة:

«وهكذا اليهود في كل زمان ومكان عندما يظنون أنفسهم في أمان يَسْبُّون ويتطاولون، وعندما تواتيهم الفرصة يقتلون ويفجرون، فإذا ما ضاق الخناق حول رقابهم يتباكون ويتذللون، فهم يتلونون

لكل حالة بالشكل الذي يظنونه نافعًا لهم، أما العهود والمواثيق، والقيم الخلقية، والمعاني الإنسانية، فلا حساب لها في ميزانهم.

على أن هذه السفاهات والمحايلات لم تغنهم شيئًا، فقد ضيَّق المسلمون عليهم الخناق، وأحكموا حصارهم لمدة خمس وعشرين ليلة، فلم يستطع بنو قريظة خلالها أن يخرجوا من حصونهم.

وأيقنوا أن حصونهم لن تغني عنهم من الهلاك شيئًا، إذا استمر الحال على ذلك».

[بنو إسرائيل في القرآن والسنة لطنطاوي ٢٩٩-٣٠٠].

«وعندما بلغ الحصار ذروته قام زعماء بني قريظة بعدة محاولات للحصول على ضمان من النبي ﷺ يحقن لهم دماءهم ويعفي نساءهم وذراريهم من السبي، ثم يخرجون من يثرب إلى غير رجعة.

وكانت أولى هذه المحاولات، أن بعثت قريظة إلى النبي ﷺ تعرض عليه استعدادها للجلاء عن يثرب وعلى الصورة التي تم بها إجلاء إخوانهم من بني النضير بعد معركة أُحُد.

وقد حمل هذا العَرْض اليهودي إلى النبي ﷺ أحد زعماء بني قريظة، وهو نباش بن قيس، فقد طلب هذا الزعيم اليهودي من النبي القائد ﷺ أن يسمح له بالحضور إلى مقر قيادته حول الحصون للمفاوضة، فسمح له النبي ﷺ بذلك.

النبي ﷺ يرفض المفاوضة على غير التسليم:

ولما أتى الحرس النبوي بهذا الزعيم اليهودي إلى النبي القائد ﷺ قدم له العرض الذي يحمله من بني قريظة والذي يطلبون فيه السماح لهم بالخروج من يثرب مع نسائهم وذراريهم وما تقدر الإبل على حمله من متاع ـ سوى السلاح ـ على أن يتركوا بقية كل ما يملكون في يثرب للمسلمين».

[غزوة بني قريظة لباشميل ١٦٧].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: وَقَالُوا (أي اليهود): نُكَلِّمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**نَعَمْ**»، فَأَنْزَلُوا نَبَّاشَ بْنَ قَيْسٍ، فَكَلَّمَ رَسُولَ الله ﷺ سَاعَةً، وَقَالَ: **يَا مُحَمَّدُ نَنْزِلُ عَلَى مَا نَزَلَتْ عَلَيْهِ بَنُو النَّضِيرِ، لَكَ الأَمْوَالُ وَالحَلْقَةُ وَنَحْقِنُ دِمَاءَنَا، وَنَخْرُجُ مِنْ بِلادِكُمْ بِالنِّسَاءِ وَالذَّرَارِيِّ، وَلَنَا مَا حَمَلَتْ الإِبِلُ إِلَّا الحَلْقَةَ**، فَأَبَى رَسُولُ الله ﷺ فَقَالُوا: **فَنَحْقِنُ دِمَاءَنَا وَتُسَلِّمُ لَنَا النِّسَاءَ وَالذُّرِّيَّةَ، وَلا حَاجَةَ لَنَا فِيمَا حَمَلَتْ الإِبِلُ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لا، إِلَّا أَنْ تَنْزِلُوا عَلَى حُكْمِي**». [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠١].

يقول أ/ باشميل: «رفض النبي ﷺ هذا العرض رفضًا باتًّا وأبلغ مندوب بني قريظة أنه لا يقبل إلا أن يسلم هؤلاء اليهود بدون قيد أو شرط.

فعاد إلى قريظة مندوبها وأبلغها نتيجة مفاوضاته مع النبي القائد ﷺ الذي رفض العرض اليهودي.

ومع هذا الرفض فلم ييأس اليهود فأرسلوا مندوبهم إياه نباش بن قيس ثانية ليعرض على النبي القائد ﷺ عرضًا آخر، يطلبون فيه أن يسمح لهم ـ رجالًا ونساء وأطفالًا ـ بالجلاء عن يثرب والنجاة

بأرواحهم، وأبلغوه أنهم يوافقون على ترك كل ما يملكون للمسلمين، فلا يحملون معهم أي شيء من المال.

وعندما تقدم نباش بن قيس بهذا الطلب إلى القائد الأعلى للجيش الإسلامي ـ باسم بني قريظة ـ رفض الموافقة عليه وكرر القول بأنه لا يقبل من هؤلاء اليهود إلا التسليم بدون قيد أو شرط.

ولما تبلغت قريظة رَفْض عرضها الأخير هذا، أسقط في يدها وازدادت مخاوفها وتضاعف قلقها وصار زعماؤها يتخبطون في دوامة من الحيرة والقلق، لا يدرون كيف يتصرفون، لا سيما وأن الحصار قد أجهدهم وأخذ بخناقهم فحطم أعصابهم». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٦٧-١٦٨].

سيد بني قريظة يدعوهم إلى الإسلام:

يقول أ/ باشميل: «ففي ذلك الظرف العصيب دعا سيد بني قريظة (كعب بن أسد) دعا زعماء قومه إلى اجتماع في مقر قيادته لتبادل وجهات النظر بشأن الموقف الحربي ولإبداء الرأي حول ما يجب اتخاذه لإنقاذ الموقف المتدهور.

ولما اجتمع رؤساء الغدر والخيانة بسيدهم كعب بن أسد وكان عاقلًا متزنًا، لولا رفقاء السوء الذين غلبوه على أمره وحملوه على نقض العهد الذي بينه وبين النبي ﷺ.

فقد كان كعب هذا ـ كما تقدم ـ كارهًا لنقض العهد وراغبًا رغبة أكيدة في البقاء على ولائه للمسلمين، ومن أجل ذلك أقفل باب حصنه عندما علم أن شيطان بني النضير حيي بن أخطب جاء لمقابلته عندما وصلت جيوش الأحزاب إلى ضواحي المدينة.

لأنه كان يعلم أن حيًّا هذا ما جاء إلا ليطلب من بني قريظة الغدر بالمسلمين والانضمام إلى الأحزاب، فكان كعب بن أسد متخوفًا من نقض العهد، وكان يُقدِّر النتائج الوخيمة التي ستترتب على الغدر بالمسلمين قبل وقوعها.

ولهذا رفض أول الأمر مقابلة حيي بن أخطب واستقبح رأيه الداعي إلى الغدر بالمسلمين، وعندما أراد حيي التأثير عليه بقوة الأحزاب الضاربة وإقناعه بأن قضاءها على المسلمين في حكم المؤكد فقال له: **وَيْحَكَ يَا كَعْبُ! جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ** (يعني جيوش الأحزاب).

فَقَالَ لَهُ كَعْبٌ ـ وكأنه ينظر جهارًا إلى ما سيحل ببني قريظة نتيجة الانضمام إلى الأحزاب ـ: **جِئْتَنِي وَاللهِ بِذُلِّ الدَّهْرِ، وَبِجَهَامٍ** (السحاب الرقيق الذي لا ماء فيه) **قَدْ هَرَاقَ مَاءَهُ، فَهُوَ يُرْعِدُ وَيُبْرِقُ، لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ** (يعني بذلك كعب: أن جيوش الأحزاب على كثرتها وعظمتها ليست إلا كالسحاب العظيم الذي تصك رعوده الآذان ويخطف برقه الأبصار وليس فيه قطرة ماء)، **وَيْحَكَ يَا حُيَيُّ! فَدَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ، فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِنْ مُحَمَّدٍ إِلَّا صِدْقًا وَوَفَاءً.**

وعندما اجتمع يهود بني قريظة بسيدهم كعب بن أسد عندما خنقهم الحصار، ذكَّرهم، وذكَّر حيي بن أخطب على وجه الخصوص، بأنه قد حذرهم هذا المصير عندما مانع في نقض العهد والغدر بالمسلمين في بداية الأمر.

وكان حيي بن أخطب عندما نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد والغدر بالمسلمين قد تعهد لسيد بني قريظة بأن يدخل معه حصنه ليصيبه ما أصاب بني قريظة إذا ما انسحبت جيوش الأحزاب دون أن تستأصل شأفة المسلمين وتقضي عليهم قضاء تامًا، وفعلًا، فقد وفَّى له حيي بذلك، فقد أتى الله به إلى حصون بني قريظة ليجني ثمار أعماله الشريرة فبقي معهم داخل حصونهم حتى نهاية أمرهم.

ثم واصل كعب بن أسد حديثه مع قومه في هذا الاجتماع فدعاهم ـ لإنقاذ الموقف ـ إلى اتباع أمر من ثلاثة:

(أ) إما اتباع النبي ﷺ والدخول في الإسلام.

(ب) وإما الهجوم على المسلمين بطريقة انتحارية، بعد قتل نساء بني قريظة وأطفالها.

(ج) وإما أخذ المسلمين على حين غرة بالهجوم عليهم يوم السبت وهو يوم لا يعمل فيه اليهود شيئًا (تدينًا).

ولكن اليهود رفضوا العمل بأي من هذه الاقتراحات». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٦٢-١٦٥].

وَقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ : ... عَنْ مَعْبَدِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ السُّلَمِيِّ ﷺ:... فَلَمَّا أَيْقَنُوا بِأَنَّ رَسُولَ الله ﷺ غَيْرُ مُنْصَرِفٍ عَنْهُمْ حَتَّى يُنَاجِزَهُمْ قَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ لَهُمْ: يَا مَعْشَرَ يَهُودَ! قَدْ نَزَلَ بِكُمْ مِنَ الأَمْرِ مَا تَرَوْنَ، وَإِنِّي عَارِضٌ عَلَيْكُمْ خِلَالًا ثَلَاثًا، فَخُذُوا أَيَّهَا شِئْتُمْ، قَالُوا: وَمَا هِيَ؟

قَالَ: نُتَابِعُ هَذَا الرَّجُلَ وَنُصَدِّقُهُ، فَوَاللهِ لَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ أَنَّهُ لَنَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَأَنَّهُ لَلَّذِي تَجِدُونَهُ فِي كِتَابِكُمْ؛ فَتَأْمَنُونَ عَلَى دِمَائِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَأَبْنَائِكُمْ وَنِسَائِكُمْ.

قَالُوا: لَا نُفَارِقُ حُكْمَ التَّوْرَاةِ أَبَدًا، وَلَا نَسْتَبْدِلُ بِهِ غَيْرَهُ.

قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ عَلَيَّ هَذِهِ، فَهَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، ثُمَّ نَخْرُجْ إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ رِجَالًا مُصْلِتِينَ السُّيُوفَ لَمْ نَتْرُكْ وَرَاءَنَا ثِقَلًا يُهِمُّنَا، حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مُحَمَّدٍ، فَإِنْ نَهْلِكْ نَهْلِكْ وَلَمْ نَتْرُكْ وَرَاءَنَا فَلَا نَخْشَى عَلَيْهِ [نَسْلًا يُهِمُّنَا نَخَافُ عَلَيْهِ]، وَإِنْ نَظْهَرْ فَلَعَمْرِي لَنَجِدَنَّ النِّسَاءَ وَالأَبْنَاءَ.

قَالُوا: نَقْتُلُ هَؤُلَاءِ المَسَاكِينَ فَمَا خَيْرُ العَيْشِ بَعْدَهُمْ؟

قَالَ: فَإِنْ أَبَيْتُمْ عَلَيَّ هَذِهِ فَإِنَّ اللَّيْلَةَ لَيْلَةُ السَّبْتِ، وَإِنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ قَدْ أَمِنُونَا فِيهَا، فَانْزِلُوا لَعَلَّنَا نُصِيبُ مِنْ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ غِرَّةً.

قَالُوا: نُفْسِدُ سَبْتَنَا عَلَيْنَا، وَنُحْدِثُ فِيهِ مَا لَمْ يُحْدِثْ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا إِلَّا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ، فَأَصَابَهُ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ مِنَ المَسْخِ.

قَالَ: مَا بَاتَ رَجُلٌ مِنكُمْ مُنْذُ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنْ الدَّهْرِ حَازِمًا».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٥-٢٣٦، دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٥].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: فَرَجَعَ نَبَّاشٌ إِلَى أَصْحَابِهِ بِمَقَالَةِ رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ: يَا مَعْشَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَالله إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ الله، وَمَا مَنَعَنَا مِنَ الدُّخُولِ مَعَهُ إِلَّا الحَسَدُ لِلعَرَبِ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَهُوَ حَيْثُ جَعَلَهُ الله، وَلَقَدْ كُنْتُ كَارِهًا لِنَقْضِ العَهْدِ وَالعَقْدِ، وَلَكِنَّ البَلاءَ وَشُؤْمَ هَذَا الجَالِسِ عَلَيْنَا وَعَلَى قَوْمِهِ، وَقَوْمُهُ كَانُوا أَسْوَأَ مِنَّا، لا يَسْتَبْقِي مُحَمَّدٌ رَجُلًا وَاحِدًا إِلَّا مَنْ تَبِعَهُ، أَتَذْكُرُونَ مَا قَالَ لَكُمْ ابْنُ خِرَاشٍ حِين قَدِمَ عَلَيْكُمْ، فَقَالَ: تَرَكْتُ الخَمْرَ وَالخَمِيرَ وَالتَّأْمِيرَ وَجِئْتُ إِلَى السِّقَاءِ وَالتَّمْرِ وَالشَّعِيرِ؟ قَالُوا: وَمَا ذَلِكَ؟ قَالَ: يَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ القَرْيَةِ نَبِيٌّ، فَإِنْ خَرَجَ وَأَنَا حَيٌّ اتَّبَعْتُهُ وَنَصَرْتُهُ، وَإِنْ خَرَجَ بَعْدِي فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُخْدَعُوا عَنْهُ فَاتَّبِعُوهُ وَكُونُوا أَنْصَارَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ، وَقَدْ آمَنْتُمْ بِالكِتَابَيْنِ كِلَيْهِمَا الأَوَّلِ وَالآخِرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَتَعَالَوْا فَلْنَتَّبِعْهُ وَلْنُصَدِّقْهُ، وَلْنُؤْمِنْ بِهِ فَنَأْمَنُ عَلَى دِمَائِنَا وَأَبْنَائِنَا وَنِسَائِنَا وَأَمْوَالِنَا، فَنَكُونُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ مَعَهُ.

قَالُوا: لا نَكُونُ تَبَعًا لِغَيْرِنَا، نَحْنُ أَهْلُ الكِتَابِ وَالنُّبُوَّةِ وَنَكُونُ تَبَعًا لِغَيْرِنَا؟

فَجَعَلَ كَعْبٌ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ الكَلامَ بِالنَّصِيحَةِ لَهُمْ قَالُوا: لا نُفَارِقُ التَّوْرَاةَ وَلا نَدَعُ مَا كُنَّا عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ مُوسَى.

قَالَ: فَهَلُمَّ فَلْنَقْتُلْ أَبْنَاءَنَا وَنِسَاءَنَا، ثُمَّ نَخْرُجُ فِي أَيْدِينَا السُّيُوفُ إِلَى مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ، فَإِنْ قَتَلَنَا قُتِلْنَا وَمَا وَرَاءَنَا أَمْرٌ نَهْتَمُّ بِهِ، وَإِنْ ظَفِرْنَا فَلَعَمْرِي لَنَتَّخِذَنَّ النِّسَاءَ وَالأَبْنَاءَ.

فَتَضَاحَكَ حُيَيُّ بْنُ أَخْطَبَ، ثُمَّ قَالَ: مَا ذَنْبُ هَؤُلاءِ المَسَاكِينِ؟

وَقَالَتْ رُؤَسَاءُ اليَهُودِ، الزَّبِيرُ بْنُ بَاطَا وَذَوُوهُ: مَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ بَعْدَ هَؤُلاءِ.

قَالَ: فَوَاحِدَةٌ قَدْ بَقِيَتْ مِنَ الرَّأْيِ لَمْ يَبْقَ غَيْرُهَا، فَإِنْ لَمْ تَقْبَلُوهَا فَأَنْتُمْ بَنُو إِسْتِهَا.

قَالُوا: مَا هِيَ؟

قَالَ: اللَّيْلَةُ السَّبْتُ، وَبِالحَرِيِّ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ آمِنِينَ لَنَا فِيهَا أَنْ نُقَاتِلَهُ، فَنَخْرُجُ فَلَعَلَّنَا أَنْ نُصِيبَ مِنْهُ غِرَّةً.

قَالُوا: نُفْسِدُ سَبْتَنَا، وَقَدْ عَرَفْتَ مَا أَصَابَنَا فِيهِ؟

قَالَ حُيَيٌّ: قَدْ دَعَوْتُكَ إِلَى هَذَا وَقُرَيْشٌ وَغَطَفَانُ حُضُورٌ، فَأَبَيْتَ أَنْ نَكْسِرَ السَّبْتَ فَإِنْ أَطَاعَتْنِي اليَهُودُ فَعَلُوا.

فَصَاحَتِ اليَهُودُ: لا نَكْسِرُ السَّبْتَ.

قَالَ نَبَّاشُ بْنُ قَيْسٍ: وَكَيْفَ نُصِيبُ مِنْهُمْ غِرَّةً وَأَنْتَ تَرَى أَنَّ أَمْرَهُمْ كُلَّ يَوْمٍ يَشْتَدُّ، كَانُوا أَوَّلَ مَا يُحَاصِرُونَنَا إِنَّمَا يُقَاتِلُونَ بِالنَّهَارِ وَيَرْجِعُونَ اللَّيْلَ، فَكَانَ هَذَا لَكَ قَوْلًا: لَوْ بَيَّتْنَاهُمْ، فَهُمْ الآنَ يُبَيِّتُونَ اللَّيْلَ، وَيَظَلُّونَ النَّهَارَ فَأَيُّ غِرَّةً نُصِيبُ مِنْهُمْ؟ هِيَ مَلْحَمَةٌ وَبَلاءٌ كُتِبَ عَلَيْنَا.

فَاخْتَلَفُوا وَسُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَنَدِمُوا عَلَى مَا صَنَعُوا، وَرَقُّوا عَلَى النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ، وَذَلِكَ أَنَّ النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ لَـمَّا رَأَوْا ضَعْفَ أَنْفُسِهِمْ هَلَكُوا، فَبَكَى النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ فَرَقُّوا عَلَيْهِمْ».

[المغازي للواقدي ٢/ ٥٠١-٥٠٣].

لا أمل في النجدة:

يقول أ/ باشميل: «ولا شك أن يهود بني قريظة قد قلَّبوا الأمر من جميع وجوهه للاستعانة والاستغاثة بأية فئة يمكنها المساهمة في تخليص رقابهم من الموت المحقق الذي ينتظرهم جزاء خيانتهم العظمى.

ولكن ماذا عسى أن يجديهم التفكير والبحث في هذا الوجه، وبمن يستغيثون ويستنجدون؟ أبقريش أم بغطفان؟

إن هذه القبائل بحق هي أشد قبائل الجزيرة العربية قوة، وأقواها شكيمة، مع العداء الشديد لرسول الله ﷺ وهذه القبائل هي التي يمكن لقريظة أن تستنجد بها ولو لفك الحصار عن معاقلها، ولكن قريظة تعلم أن هذا الحصار الذي تغرق الآن حصونها في محيطه المتلاطم، إنما كان من أهم أسباب التعجيل به هو غضب تلك القبائل القرشية والنجدية ونقمتها على هؤلاء اليهود.

ولهذا فإنه لا أمل لهؤلاء اليهود المحصورين في أن تستجيب لهم تلك القبائل إذا ما استنجدوا بها.

موقف خيبر من بني قريظة:

أما يهود خيبر من بني النضير وغيرهم ـ وهم أقوى قوة يهودية مسلحة في جزيرة العرب، والذين لهم اليد الطولى في تجميع جيوش الأحزاب وتموينها لغزو المدينة، فقد أصابهم الذعر وتملكهم الفزع لانسحاب جيوش الأحزاب دون أن تحقق شيئًا من الهدف الذي جاءت من أجله.

يُضاف إلى هذا أن يهود بني النضير هؤلاء قد خرجوا من المدينة أذلاء مطرودين، بعد أن حاربوا المسلمين حربًا خاسرة كانت نهايتها الاستسلام وطرد هؤلاء اليهود من المدينة.

فلو أن فيهم بقية من قدرة على منازلة المسلمين ما قبلوا الجلاء عن المدينة على تلك الصورة المهينة.

فهم إذن أضعف من أن يفكروا في الزحف على المدينة لفك الحصار الخانق المضروب على سيدهم حيي بن أخطب مع عصابة الغدر والخيانة من بني قريظة.

ولهذا فإن بني قريظة لم يفكروا مطلقًا في الاستنجاد بإخوتهم من يهود خيبر وبني النضير؛ لأنهم على يقين بأن هؤلاء اليهود لن يصنعوا لهم شيئًا إذا ما استنجدوا بهم.

ولهذا فإنه لم يبق ـ أمام يهود بني قريظة ـ بعد الذي بذلوه من محاولات فاشلة لحقن دمائهم، سوى الإقدام على أحد أمرين.

إما أن تفتح قريظة حصونها وتدخل في معركة فاصلة مع المسلمين يكون الحكم فيها للسيف.

وإما الاستسلام للقائد الأعلى النبي ﷺ بدون قيد أو شرط.

أما الدخول في معركة فاصلة مع المسلمين، فقد أثبتت قريظة أنها أجبن من أن تفكر فيه أبدًا؛ ذلك أن سيدها كعب بن أسد قد عرض عليها القيام بهذا العمل البطولي ولكنها رفضت الإقدام عليه وهي ترتجف جبنًا لمجرد ذكره.

إذن، فلا مناص لقريظة من الاستسلام لقوات المسلمين والنزول على حكم الرسول ﷺ بدون قيد أو شرط.

وهذا هو الذي قرره بنو قريظة أخيرًا؛ وذلك طمعًا منهم في أن يعفو عنهم النبي ﷺ ويحقن دماءهم كما فعل مع بني قينقاع وبني النضير الذين تمردوا عليه واستسلموا له فعفا عنهم».

[غزوة بني قريظة لباشميل ١٦٨-١٧٠].

وساطة أبي لبابة ﷺ وإفشاء سر الرسول ﷺ:

«حاول بنو قريظة أن يظفروا بصلح كالذي ناله إخوانهم بنو النضير من قبل، بيد أن المسلمين أبوا عليهم إلا أن يستسلموا دون قيد أو شرط، فإن ما أسلف هؤلاء من جرم بيِّن وغدر شائن أحفظ عليهم الصدور، فلم يبق فيها مكان لسماح، وتمحض الموقف للعدل المجرد يقرُّ الأمور في نصابها كيف يشاء». [فقه السيرة للغزالي ٣٢٤].

ولكن بني قريظة ـ قبل أن يبلغوا النبي ﷺ قرار استسلامهم رسميًّا ـ قاموا بمحاولة أخرى لعلهم بها ينالون شيئًا من تخفيف العقوبة التي كانوا يتوقعونها جزاء غدرهم وخيانتهم.

فعلى إثر رفض الرسول ﷺ عرضهم الأول والثاني عقدوا اجتماعًا خاصًّا، لبحث ما يجب اتخاذه حيال الموقف المتأزم.

وفي هذا الاجتماع اتفق زعماء قريظة على أن يتصلوا بالنبي القائد ﷺ ويطلبوا منه أن يسمح لحليفهم أبي لبابة الأنصاري ﷺ، بأن يأتي إليهم ليستشيروه في أمرهم.

وكان أبو لبابة ﷺ حليفًا لبني قريظة، وكانت أمواله وولده في منطقتهم، فكانوا لذلك يعتقدون فيه الإخلاص لهم والعطف عليهم.

وقد سمح النبي ﷺ لأبي لبابة ﷺ أن يذهب إلى بني قريظة ـ كما طلبوا ـ لمقابلتهم، فقد استدعاه وقال له: «**اذْهَبْ إِلَى حُلَفَائِكَ، فَإِنَّهُمْ أَرْسَلُوا إِلَيْكَ مِنْ بَيْنِ الأَوْسِ**».

وقد ذهب أبو لبابة ﷺ إلى بني قريظة، وعندما دخل حصنهم الرئيس قام النساء والصبيان يبكون في وجهه من شدة الحصار، ويظهر أن اليهود قد دبروا حشر النساء والصبيان ليجهشوا بالبكاء في وجه أبي لبابة ﷺ للتأثير عليه، وعندما اجتمع اليهود إلى أبي لبابة ﷺ شرحوا له ما هم فيه من جهد وهمٍّ وضيق، واستشاروه: هل من مصلحتهم النزول على حكم النبي ﷺ دونما قيد أو شرط؟

عَنِ ابْنِ أَبِي خَالِدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي قَتَادَةَ، يَقُولُ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَـٰنَـٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال:٢٧]، قَالَ: سَأَلُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ ﷺ بَنُو قُرَيْظَةَ يَوْمَ قُرَيْظَةَ: مَا هَذَا الْأَمْرُ (أي النزول على حكم الله ورسوله)؟ فَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ يَقُولُ: الذَّبْحَ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ، قَالَ: قَالَ سُفْيَانُ: قَالَ أَبُو لُبَابَةَ ﷺ: **مَا زَالَتْ قَدَمَايَ حَتَّى عَلِمْتُ أَنِّي خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ**. [التفسير من سنن سعيد بن منصور ٥/ ٢٠٥-٢٠٦ رقم ٩٨٧، وقال محققه: سنده رجاله ثقات، لكنه ضعيف لإرساله، فعبد الله بن أبي قتادة تابعي، وقول سفيان معضل. وقال الشيخ الصوياني: حسن، وسنده مرسل. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٠].

قَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالُوا: فَلَمَّا اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ الحِصَارُ أَرْسَلُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَرْسِلْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الـمُنْذِرِ.

فَحَدَّثَنِي رَبِيعَةُ بْنُ الحَارِثِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَقِيلٍ، عَنْ السَّائِبِ بْنِ أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: لَـمَّا أَرْسَلَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يُرْسِلَنِي إِلَيْهِمْ دَعَانِي رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**اذْهَبْ إِلَى حُلَفَائِكَ، فَإِنَّهُمْ أَرْسَلُوا إِلَيْكَ مِنْ بَيْنِ الأَوْسِ**».

قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَيْهِمْ وَقَدْ اشْتَدَّ عَلَيْهِمْ الحِصَارُ فَبَهَشُوا (أسرعوا) إِلَيَّ، وَقَالُوا: **يَا أَبَا لُبَابَةَ نَحْنُ مَوَالِيكَ دُونَ النَّاسِ كُلِّهِمْ**، فَقَامَ كَعْبُ بْنُ أَسَدٍ، فَقَالَ: **أَبَا بَشِيرٍ قَدْ عَلِمْتَ مَا صَنَعْنَا فِي أَمْرِكَ وَأَمْرِ قَوْمِكَ يَوْمَ الحَدَائِقِ وَبُعَاثٍ، وَكُلِّ حَرْبٍ كُنْتُمْ فِيهَا، وَقَدْ اشْتَدَّ عَلَيْنَا الحِصَارُ وَهَلَكْنَا، وَمُحَمَّدٌ يَأْبَى يُفَارِقُ حِصْنَنَا حَتَّى نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِهِ، فَلَوْ زَالَ عَنَّا لَحِقْنَا بِأَرْضِ الشَّامِ أَوْ خَيْبَرَ، وَلَمْ نَطَأْ لَهُ حُرًّا أَبَدًا، وَلَمْ نُكْثِرْ عَلَيْهِ جَمْعًا أَبَدًا**.

قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: **أَمَّا مَا كَانَ هَذَا مَعَكُمْ فَلا يَدَعُ هَلاكَكُمْ** ـ وَأَشَرْتُ إِلَى حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، قَالَ كَعْبٌ: **هُوَ وَاللهِ أَوْرَدَنِي ثُمَّ لَمْ يُصْدِرْنِي**، فَقَالَ حُيَيٌّ: **فَمَا أَصْنَعُ؟ كُنْتُ أَطْمَعُ فِي أَمْرِهِ، فَلَـمَّا أَخْطَأَنِي آسَيْتُكَ بِنَفْسِي، يُصِيبُنِي مَا أَصَابَكَ**.

قَالَ كَعْبٌ: **وَمَا حَاجَتِي إِلَى أَنْ أُقْتَلَ أَنَا وَأَنْتَ وَتُسْبَى ذَرَارِيُّنَا؟**

قَالَ حُيَيٌّ: **مَلْحَمَةٌ وَبَلاءٌ كُتِبَ عَلَيْنَا**.

ثُمَّ قَالَ كَعْبٌ: **مَا تَرَى، فَإِنَّا قَدْ اخْتَرْنَاكَ عَلَى غَيْرِكَ؟ إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ أَبَى إِلَّا أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِهِ أَفَنَنْزِلُ؟**

قَالَ: **نَعَمْ فَانْزِلُوا** ـ وَأَوْمَأَ إِلَى حَلْقِهِ هُوَ الذَّبْحُ. (كأن أبا لبابة فهم ذلك من عدم إجابة الرسول ﷺ لهم بحقن دمائهم، وعرف أن الرسول ﷺ سيذبحهم إن نزلوا على حكمه، وبهذا أشار لبني قريظة. يراجع: شرح المواهب).

قَالَ: **فَنَدِمْتُ فَاسْتَرْجَعْتُ**، فَقَالَ لِي كَعْبٌ: **مَا لَكَ يَا أَبَا لُبَابَةَ؟** فَقُلْتُ: **خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ**، فَنَزَلَتْ وَإِنَّ لِحْيَتِي لَمُبْتَلَّةٌ مِنَ الدُّمُوعِ، وَالنَّاسُ يَنْتَظِرُونَ رُجُوعِي إِلَيْهِمْ، حَتَّى أَخَذْتُ مِنْ وَرَاءِ الحِصْنِ طَرِيقًا آخَرَ حَتَّى جِئْتُ إِلَى المَسْجِدِ فَارْتَبَطْتُ، فَكَانَ ارْتِبَاطِي إِلَى الأُسْطُوَانَةِ المُخَلَّقَةِ (أي التي طليت بالخلوق، وهو ما يخلق به من الطيب) الَّتِي تُقَالُ [لها]: أُسْطُوَانَةُ التَّوْبَةِ ـ وَيُقَالُ: لَيْسَ تِلكَ إِنَّمَا ارْتَبَطَ إِلَى أُسْطُوَانَةٍ كَانَتْ وِجَاهَ المِنْبَرِ عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ. وَهَذَا أَثْبَتُ القَوْلَيْنِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٥-٥٠٧].

وقد ارتكب أبو لبابة ﷺ غلطة كبيرة اعترف هو فيما بعد بأنها خيانة كبرى، فقد رق أبو لبابة ﷺ عندما رأى النساء والصبيان يبكون في وجهه، فتغلبت عليه العاطفة، فانحرفت به عن جادة الصواب.

وَقال البيهقي:... فَحَاصَرَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ بِكَتَائِبِ الـمُسْلِمِينَ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً، وَرَدَّ اللهُ ﷻ حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ، حَتَّى دَخَلَ حِصْنَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَقَذَفَ اللهُ ﷻ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الحِصَارُ؛ فَصَرَخُوا بِأَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ وَكَانُوا حُلَفَاءَ لِلأَنْصَارِ، فَقَالَ أَبُو لُبَابَةَ: **لَا آتِيهِمْ، حَتَّى يَأْذَنَ لِي رَسُولُ الله ﷺ**، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**قَدْ أَذِنْتُ لَكَ**»، فَأَتَاهُمْ أَبُو لُبَابَةَ، فَبَكَوْا إِلَيْهِ وَقَالُوا: **يَا أَبَا لُبَابَةَ، مَاذَا تَرَى؟ وَمَاذَا تَأْمُرُنَا؟ فَإِنَّهُ لَا طَاقَةَ لَنَا بِالقِتَالِ**، فَأَشَارَ أَبُو لُبَابَةَ بِيَدِهِ إِلَى حَلقِهِ، وَأَمَرَّ عَلَيْهِ أَصَابِعَهُ، يُرِيهِمْ أَنَّمَا يُرَادُ بِكُمُ القَتْلُ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٣].

وقال ابن إسحاق: ثُمَّ إِنَّهُمْ بَعَثُوا إِلَى رَسُولِ الله ﷺ أَنِ ابْعَثْ إِلَيْنَا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ الْمُنْذِرِ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ، وَكَانُوا حُلَفَاءَ الأَوْسِ؛ لِنَسْتَشِيرَهُ فِي أَمْرِنَا، فَأَرْسَلَهُ رَسُولُ الله ﷺ إِلَيْهِمْ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامَ إِلَيْهِ الرِّجَالُ وَجَهَشَ (بكى) إِلَيْهِ النِّسَاءُ وَالصِّبْيَانُ يَبْكُونَ فِي وَجْهِهِ، فَرَقَّ لَهُمْ، وَقَالُوا لَهُ: يَا أَبَا لُبَابَةَ أَتَرَى أَنْ نَنْزِلَ عَلَى حُكْمِ مُحَمَّدٍ؟ قَالَ: **نَعَمْ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلقِهِ إِنَّهُ الذَّبْحُ**.

قَالَ أَبُو لُبَابَةَ ﷺ: **فَوَالله مَا زَالَتْ قَدَمَايَ مِنْ مَكَانِهِمَا حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي قَدْ خُنْتُ اللهَ ﷻ وَرَسُولَهُ ﷺ**.

ثُمَّ انْطَلَقَ أَبُو لُبَابَةَ ﷺ عَلَى وَجْهِهِ وَلَمْ يَأْتِ رَسُولَ الله ﷺ حَتَّى ارْتَبَطَ فِي المَسْجِدِ إِلَى عَمُودٍ مِنْ عُمُدِهِ وَقَالَ: **لَا أَبْرَحُ مَكَانِي هَذَا حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ مِمَّا صَنَعْتُ، وَعَاهَدَ اللهَ: أَنْ لَا أَطَأَ بَنِي قُرَيْظَةَ أَبَدًا، وَلَا أُرَى فِي بَلَدٍ خُنْتُ اللهَ وَرَسُولَهُ فِيهِ أَبَدًا**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٦-٢٣٧، دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٦].

إن أبا لبابة المؤمن الصادق، لم يكد ينطق بآخر كلمة من هذه الإشارة حتى أسقط في يده، وأدرك عظم الخطيئة التي ارتكبها في حق نبيه وأمته.

ما نزل في موقف أبي لبابة ﷺ:

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي أَبِي لُبَابَةَ ﷺ فِيمَا قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ عَبْدِ الله بْنِ أَبِي قَتَادَةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنفال]». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٧].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَنَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الـمُنْذِرِ ﷺ: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [التوبة].

وَيُقَال: نَزَلَتْ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [الأنفال:٢٧].

وَحَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله، عَنْ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: نَزَلَتْ فِيهِ: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ ﴾ الآيَةَ [المائدة:٤١].

وَأَثْبَتُ ذَلِكَ عِنْدَنَا قَوْلُهُ ﷻ: ﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٩].

أبو لبابة ﷺ يربط نفسه في المسجد:

ولقد ضاقت الأرض على أبي لبابة ﷺ بما رحبت، وأخذ ضميره في تأنيبه وتقريعه على ما فعل، وفورًا غادر أبو لبابة ﷺ حصن حليفه كعب بن أسد مهمومًا حزينًا.

وخجلًا من رسول الله ﷺ لم يذهب إليه، وإنما توجه إلى المسجد والدموع تسيل من عينيه، وقرر أن يربط نفسه بسارية من سواري المسجد إلى أن يموت أو يتوب الله عليه.

ولقد كان امتحانًا نفسيًّا قاسيًا تعرَّض له هذا الصحابي الجليل، فقد ربط نفسه بسلسلة ثقيلة بالأسطوانة التي ينصرف إليها رسول الله ﷺ من صلاة الصبح، وهي تقع عند باب أم سلمة.

موقف الرسول ﷺ من أبي لبابة ﷺ:

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَـمَّا بَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ خَبَرُهُ، وَكَانَ قَدْ اسْتَبْطَأَهُ قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ لَوْ جَاءَنِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمَّا إِذْ قَدْ فَعَلَ مَا فَعَلَ فَمَا أَنَا بِالَّذِي أُطْلِقُهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيْهِ**».

[السيرة لابن هشام ٢/ ٢٣٧].

هَكَذَا قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ بِإِسْنَادِهِ، وَزَعَمَ سَعِيدُ بْنُ الـمُسَيِّبِ أَنَّ ارْتِبَاطَهُ بِسَارِيَةِ التَّوْبَةِ كَانَ بَعْدَ تَخَلُّفِهِ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، حِينَ أَعْرَضَ عَنْهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَهُوَ عَلَيْهِ عَاتِبٌ بِمَا فَعَلَ يَوْمَ قُرَيْظَةَ، ثُمَّ تَخَلَّفَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فِيمَنْ تَخَلَّفَ، وَاللهُ أَعْلَمُ.

وَفِي رِوَايَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ، وَعَطِيَّةَ بْنِ سَعْدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي ارْتِبَاطِهِ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، مَا يُؤَكِّدُ قَوْلَ ابْنِ الـمُسَيِّبِ. [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٦].

فَلَـمَّا انْصَرَفَ أَبُو لُبَابَةَ سُقِطَ فِي يَدِهِ وَرَأَى أَنَّهُ قَدْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ، فَقَالَ: وَاللهِ لَا أَنْظُرُ فِي وَجْهِ رَسُولِ الله ﷺ حَتَّى أُحْدِثَ لله ﷻ تَوْبَةً نَصُوحًا، يَعْلَمُهَا اللهُ ﷻ مِنْ نَفْسِي، فَرَجَعَ إِلَى الـمَدِينَةِ، فَرَبَطَ يَدَيْهِ إِلَى جِذْعٍ مِنْ جُذُوعِ الـمَسْجِدِ، فَزَعَمُوا أَنَّهُ ارْتَبَطَ قَرِيبًا مِنْ عِشْرِينَ لَيْلَةً، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ كَمَا ذُكِرَ حِينَ رَاثَ (أبطأ) عَلَيْهِ أَبُو لُبَابَةَ ﷺ: «**أَمَا فَرَغَ أَبُو لُبَابَةَ مِنْ حُلَفَائِهِ؟**» قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، قَدْ وَاللهِ انْصَرَفَ مِنْ عِنْدِ الحِصْنِ، وَمَا نَدْرِي أَيْنَ سَلَكَ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**وَقَدْ حَدَثَ لِأَبِي لُبَابَةَ أَمْرٌ، مَا**

كَانَ عَلَيْهِ؟» فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنْ عِنْدِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، قَدْ رَأَيْتُ أَبَا لُبَابَةَ ارْتَبَطَ بِحَبْلٍ إِلَى جِذْعٍ مِنْ جُذُوعِ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَقَدْ أَصَابَتْهُ بَعْدِي فِتْنَةٌ، وَلَوْ جَاءَنِي لَاسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَإِذْ فَعَلَ هَذَا فَلَنْ أُحَرِّكَهُ مِنْ مَكَانِهِ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيهِ مَا يَشَاءُ». [دلائل النبوة للبيهقي ٤/ ١٣-١٤].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: وَبَلَغَ رَسُولَ الله ﷺ ذَهَابِي وَمَا صَنَعْتُ، فَقَالَ: «دَعُوهُ حَتَّى يُحْدِثَ اللهُ فِيهِ مَا يَشَاءُ، لَوْ كَانَ جَاءَنِي اسْتَغْفَرْتُ لَهُ، فَأَمَّا إِذْ لَمْ يَأْتِنِي وَذَهَبَ فَدَعُوهُ»، قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: فَكُنْتُ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً وَأَذْكُرُ رُؤْيَا رَأَيْتُهَا.

فَحَدَّثَنِي مُوسَى بْنُ عُبَيْدَةَ، عَنْ أَيُّوبَ بْنِ خَالِدٍ قَالَ: قَالَ أَبُو لُبَابَةَ: رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ وَنَحْنُ مُحَاصِرُو بَنِي قُرَيْظَةَ كَأَنِّي فِي حَمْأَةٍ آسِنَةٍ، فَلَمْ أَخْرُجْ مِنْهَا حَتَّى كِدْتُ أَمُوتُ مِنْ رِيحِهَا، ثُمَّ أَرَى نَهَرًا جَارِيًا، فَأَرَانِي اغْتَسَلْتُ مِنْهُ حَتَّى اسْتَنْقَيْتُ، وَأَرَانِي أَجِدُ رِيحًا طَيِّبَةً، فَاسْتَعْبَرَهَا أَبُو بَكْرٍ ﷺ، فَقَالَ: لَتَدْخُلَنَّ فِي أَمْرٍ تَغْتَمَّ لَهُ ثُمَّ يُفَرَّجُ عَنْكَ، فَكُنْتُ أَذْكُرُ قَوْلَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ وَأَنَا مُرْتَبِطٌ، فَأَرْجُو أَنْ تَنْزِلَ تَوْبَتِي.

فَحَدَّثَنِي مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، قَالَ: وَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ اسْتَعْمَلَ أَبَا لُبَابَةَ ﷺ عَلَى قِتَالِهِمْ، فَلَمَّا أَحْدَثَ مَا أَحْدَثَ عَزَلَهُ، وَاسْتَعْمَلَ أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ، وَارْتَبَطَ أَبُو لُبَابَةَ سَبْعًا بَيْنَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ عِنْدَ الْأُسْطُوَانَةِ الَّتِي عِنْدَ بَابِ أُمِّ سَلَمَةَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ لَا يَأْكُلُ فِيهِنَّ وَلَا يَشْرَبُ، وَقَالَ: لَا أَزَالُ هَكَذَا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنْيَا أَوْ يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٧].

توبة الله ﷻ على أبي لبابة ﷺ:

وبعد أن أقام هذا الصحابي الممتحَن مربوطًا ما شاء الله أن يقيم تاب الله عليه وأطلقه الرسول ﷺ بيده الكريمة.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحَدَّثَنِي يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الله بن قُسَيْطٍ: أَنَّ تَوْبَةَ أَبِي لُبَابَةَ ﷺ نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنَ السَّحَرِ وَهُوَ فِي بَيْتِ أُمِّ سَلَمَةَ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ مِنَ السَّحَرِ وَهُوَ يَضْحَكُ، قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ الله؟ أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ، قَالَ: تِيبَ عَلَى أَبِي لُبَابَةَ، قَالَتْ: قُلْتُ: أَفَلَا أُبَشِّرُهُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: بَلَى، إِنْ شِئْتِ.

قَالَ: فَقَامَتْ عَلَى بَابِ حُجْرَتِهَا، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ عَلَيْهِنَّ الحِجَابُ، فَقَالَتْ: يَا أَبَا لُبَابَةَ، أَبْشِرْ فَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَيْكَ.

قَالَتْ: فَثَارَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيُطْلِقُوهُ، فَقَالَ: لَا وَالله حَتَّى يَكُونَ رَسُولُ الله ﷺ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُنِي بِيَدِهِ، فَلَمَّا مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ خَارِجًا إِلَى صَلَاةِ الصُّبْحِ أَطْلَقَهُ.

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: أَقَامَ أَبُو لُبَابَةَ ﷺ مُرْتَبِطًا بِالجِذْعِ سِتَّ لَيَالٍ تَأْتِيهِ امْرَأَتُهُ فِي كُلِّ وَقْتِ صَلَاةٍ فَتَحُلُّهُ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَرْتَبِطُ بِالجِذْعِ، فِيمَا حَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ، وَالآيَةُ الَّتِي نَزَلَتْ فِي تَوْبَتِهِ قَوْلُ الله ﷻ:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [التوبة]».

[السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٧-٢٣٨].

وقَالَ الوَاقِدِيُّ: قَالَ: فَلَمْ يَزَل كَذَلِكَ حَتَّى مَا يَسْمَعُ الصَّوْتَ مِنَ الجَهْدِ، وَرَسُولُ الله ﷺ يَنْظُرُ إِلَيْهِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، ثُمَّ تَابَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَنُودِيَ: **إِنَّ اللهَ قَدْ تَابَ عَلَيْكَ**، وَأَرْسَلَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَيْهِ لِيُطْلِقَ عَنْهُ رِبَاطَهُ، فَأَبَى أَنْ يُطْلِقَهُ عَنْهُ أَحَدٌ غَيْرُ رَسُولِ الله ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ الله ﷺ بِنَفْسِهِ فَأَطْلَقَهُ.

قَالَ الزُّهْرِيُّ: فَحَدَّثَتْنِي هِنْدُ بِنْتُ الحَارِثِ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَتْ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَحِلُّ عَنْهُ رِبَاطَهُ، وَإِنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَيَرْفَعُ صَوْتَهُ يُكَلِّمُهُ وَيُخْبِرُهُ بِتَوْبَتِهِ، وَمَا يَدْرِي كَثِيرًا مِمَّا يَقُولُ مِنَ الجَهْدِ وَالضَّعْفِ.

وَيُقَالُ: مَكَثَ خَمْسَ عَشْرَةَ مَرْبُوطًا، وَكَانَتْ ابْنَتُهُ تَأْتِيهِ بِتَمَرَاتٍ لِفِطْرِهِ فَيَلُوكُ مِنْهُنَّ وَيَتْرُكُ، وَيَقُولُ: **وَاللهِ مَا أَقْدِرُ عَلَى أَنْ أَسِيغَهَا فَرَقًا أَلَّا تَنْزِلَ تَوْبَتِي**، وَتُطْلِقُهُ عِنْدَ وَقْتِ كُلِّ صَلاةٍ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ تَوَضَّأَ، وَإِلَّا أَعَادَتِ الرِّبَاطَ، وَلَقَدْ كَانَ الرِّبَاطُ حَزَّ فِي ذِرَاعَيْهِ، وَكَانَ مِنْ شَعَرٍ، وَكَانَ يُدَاوِيهِ بَعْدَ ذَلِكَ دَهْرًا، وَكَانَ ذَلِكَ يَبِينُ فِي ذِرَاعَيْهِ بَعْدَ مَا بَرِئَ، وَقَدْ سَمِعْنَا فِي تَوْبَتِهِ وَجْهًا آخَرَ.

حَدَّثَنَا عَبْدُ الله بْنُ يَزِيدَ بْنِ قُسَيْطٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ ثَوْبَانَ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَتْ: إِنَّ تَوْبَةَ أَبِي لُبَابَةَ نَزَلَتْ فِي بَيْتِي، قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: فَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَضْحَكُ فِي السَّحَرِ، فَقُلْتُ: مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ الله أَضْحَكَ اللهُ سِنَّكَ؟ قَالَ: «**تِيبَ عَلَى أَبِي لُبَابَةَ**»، قَالَتْ: قُلت: أُوذِنُهُ بِذَلِكَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «مَا شِئْتِ»، قَالَتْ: فَقُمْتُ عَلَى بَابِ الحُجْرَةِ ـ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُضْرَبَ الحِجَابُ ـ فَقُلْتُ: **يَا أَبَا لُبَابَةَ أَبْشِرْ فَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَيْكَ**، فَثَارَ النَّاسُ إِلَيْهِ لِيُطْلِقُوهُ.

فَقَالَ أَبُو لُبَابَةَ: لا، حَتَّى يَأْتِيَ رَسُولُ الله، فَيَكُونَ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُ عَنِّي، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ إِلَى الصُّبْحِ أَطْلَقَهُ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٧-٥٠٩].

يمنعه الرسول ﷺ من التصدق بكل ماله:

وكم كانت فرحة هذا الصحابي الجليل أبي لبابة ﷺ بقبول الله توبته حتى إنه أراد أن ينخلع من كل ماله تكميلًا لتوبته.

قال الواقدي: حَدَّثَنِي مَعْمَرٌ، عَنِ الزُّهْرِيِّ، عَنِ ابْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: جَاءَ أَبُو لُبَابَةَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، فَقَالَ: **أَنَا أَهْجُرُ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا هَذَا الذَّنْبَ، فَأَخْرُجُ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى الله وَرَسُولِهِ**، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يُجْزِئُ عَنْكَ الثُّلُثُ**»، فَأَخْرَجَ الثُّلُثَ، وَهَجَرَ أَبُو لُبَابَةَ ﷺ دَارَ قَوْمِهِ، ثُمَّ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَبِنْ فِي الإِسْلامِ مِنْهُ إِلَّا خَيْرٌ حَتَّى فَارَقَ الدُّنْيَا. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٩].

انهيار اليهود في المقاومة:

يقول أ/ باشميل: «لقد كانت استشارة أبي لبابة ﷺ آخر محاولة يقوم بها بنو قريظة للحصول على أي شرط يحقنون به دماءهم عند الاستسلام، ولكنهم بدلًا من أن يظفروا بشيء من ذلك تلقوا من أبي لبابة ﷺ (بإشارته تلك) ما يؤكد لهم أن الموت مصيرهم إن هم استسلموا للمسلمين ونزلوا على حكم النبي ﷺ.

وبهذا انقطع آخر خيط من الأمل لهم في التخفيف، وبدلًا من أن يكون ذلك حافزًا لهم على الاستبسال والقتال حتى الموت تملَّكهم الرعب والفزع وسيطرت عليهم روح الجبن، فانهاروا كليًا.

لقد كان بوسع بني قريظة ـ وخاصة في ذلك الظرف ـ أن يستمروا في المقاومة لأشهر طويلة، يكسبون فيها بعض التنازلات من جانب المسلمين كالاكتفاء بنفيهم من المدينة.

لقد كان المسلمون المحاصِرون لهم في حالة تعب شديد نتيجة الجهد المضني الذي بذلوه في ليالي الخندق التي تحالف فيها البلاء على المسلمين وأحاطهم من كل جانب طيلة أكثر من خمس وعشرين ليلة، حُرموا فيها حتى النوم لشدة الخوف ودوام الحراسة والمرابطة في وجه عدوهم الجبار المحاصر لهم والذي ما كان يترك لهم فرصة يستريحون فيها.

يضاف إلى ذلك أن المسلمين كانوا في حالة مجاعة شديدة، والجو كان مع ذلك في غاية البرودة، فكان المسلمون يرابطون حول اليهود في العراء فيتعرضون للفح البرد الشديد مع شدة الجوع، بينما بنو قريظة ـ وهم من أثرى سكان يثرب ـ يحتمون بحصونهم المنيعة الشامخة في مأمن من لفح البرد القارس، موفورًا لديهم كل ما يحتاجونه من الطعام لأشهر طويلة، كما أن الماء كان موجودًا لديهم بصفة دائمة داخل الحصون حيث كانت هذه الحصون تحتوي على آبار كثيرة.

ولكن اليهود ـ مع كل هذه العوامل التي توحي بقوتهم المادية التي تمكنهم من الاستمرار في المقاومة لمدة طويلة ـ قد انهارت أعصابهم وتحطمت معنوياتهم إلى درجة لم يحتملوا معها الحصار أكثر من خمس وعشرين ليلة.

فقد قذف الله في قلوبهم الرعب، وهم على تلك الحالة من القوة والمنعة والتحصن ووفرة السلاح وكثرة العدد، فكانوا يفكرون في كل شيء إلا استعمال السلاح للدفاع عن حصونهم.

قال اللواء الركن محمود شيت خطاب في كتابه (الرسول القائد ﷺ): «لم تكن حرب بني قريظة حرب ميدان، وإنما كانت حرب أعصاب، فلم يستطع يهود أن يتحملوا الحصار على الرغم من توفر المواد الغذائية لديهم وتوفر المياه والآبار ومناعة حصونهم وصعوبة اقتحامها، فآثروا الاستسلام على مكابدة الحصار.

والحق أن الموقف العسكري كان إلى جانبهم لتلك الأسباب كلها؛ ولشدة تعب المسلمين، ولبرودة الطقس، ولكن معنوياتهم المنحطة انهارت، فلم يقاوموا طويلًا كما كان المؤمل».

[الرسول القائد ﷺ لخطاب ٢٤٦].

على أن سفاهتهم لم تغنهم، فقد أحكم المسلمون الحصار عليهم، وأمسكوا بخناقهم، فاستيقن القوم أن الاستسلام لا محيص عنه، وامتلأت قلوبهم باليأس والفزع». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٧٦-١٧٨].

إسْلامُ بَعْضِ بَنِي هَدَلٍ:

روى البيهقي بسنده عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ ، قَالَ: حَدَّثَنِي عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، عَنْ شَيْخٍ مِنْ قُرَيْظَةَ أَنَّهُ قَالَ: هَلْ تَدْرِي عَمَّ كَانَ إِسْلَامُ ثَعْلَبَةَ وَأُسَيْدِ ابْنَيْ سَعْيَةَ، وَأَسَدِ بْنِ عُبَيْدٍ نَفَرٌ مِنْ هُدَلَ لَمْ يَكُونُوا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَلَا نَضِيرٍ كَانُوا فَوْقَ ذَلِكَ؟ فَقُلْتُ: لَا، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدِمَ عَلَيْنَا رَجُلٌ مِنَ الشَّامِ مِنْ يَهُودَ يُقَالُ لَهُ ابْنُ الْهَيْبَانِ فَأَقَامَ عِنْدَنَا، وَاللهِ مَا رَأَيْنَا رَجُلًا قَطُّ لَا يُصَلِّي الْخَمْسَ خَيْرًا مِنْهُ، فَقَدِمَ عَلَيْنَا قَبْلَ مَبْعَثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَنَتَيْنِ، فَكُنَّا إِذَا قَحَطْنَا وَقَلَّ عَلَيْنَا الْمَطَرُ نَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ الْهَيْبَانِ اخْرُجْ فَاسْتَسْقِ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا وَاللهِ حَتَّى تُقَدِّمُوا أَمَامَ مَخْرَجِكُمْ صَدَقَةً، فَنَقُولُ: كَمْ نُقَدِّمُ؟ فَيَقُولُ: صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ مُدَّيْنِ مِنْ شَعِيرٍ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى ظَاهِرَةِ حَرَّتِنَا [حَيِّنَا] وَنَحْنُ مَعَهُ فَيَسْتَسْقِي، فَوَاللهِ مَا يَقُومُ مِنْ مَجْلِسِهِ حَتَّى تُمَرَّ السُّعَابُ [تَسِيلُ]، قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ غَيْرَ مَرَّةٍ لَا مَرَّتَيْنِ وَلَا ثَلَاثَةً، فَحَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ فَاجْتَمَعْنَا إِلَيْهِ، فَقَالَ: **يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، مَا تَرَوْنَهُ أَخْرَجَنِي مِنْ أَرْضِ الْخَمْرِ وَالْخَمِيرِ إِلَى أَرْضِ الْبُؤْسِ وَالْجُوعِ؟** فَقُلْنَا: أَنْتَ أَعْلَمُ ، فَقَالَ: **إِنَّهُ إِنَّمَا أَخْرَجَنِي أَتَوَقَّعُ خُرُوجَ نَبِيٍّ قَدْ أَظَلَّ زَمَانُهُ [يُبْعَثُ الآنَ]، هَذِهِ الْبِلَادُ مُهَاجَرُهُ، فَأَتَّبِعُهُ، فَلَا تُسْبَقُنَّ إِلَيْهِ إِذَا خَرَجَ يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، فَإِنَّهُ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَيَسْبِي الذَّرَارِيَّ وَالنِّسَاءَ مِمَّنْ خَالَفَهُ، فَلَا يَمْنَعْكُمْ ذَلِكَ مِنْهُ**، ثُمَّ مَاتَ، فَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ الَّتِي افْتُتِحَتْ فِيهَا قُرَيْظَةُ قَالَ أُولَئِكَ الْفِتْيَةُ الثَّلَاثَةُ، وَكَانُوا شُبَّانًا أَحْدَاثًا: **يَا مَعْشَرَ يَهُودَ لِلَّذِي كَانَ ذَكَرَ لَكُمُ ابْنُ الْهَيْبَانِ**، قَالُوا: مَا هُوَ؟ قَالُوا: **بَلَى وَاللهِ هُوَ يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، إِنَّهُ وَاللهِ هُوَ لِصِفَتِهِ**، ثُمَّ نَزَلُوا فَأَسْلَمُوا وَخَلَّوْا أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ وَأَهَالِيَهُمْ، قَالَ: وَكَانَتْ أَمْوَالُهُمْ فِي الْحِصْنِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا فُتِحَ رُدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ.

[السنن الكبرى للبيهقي كتاب السير ٩/ ١٩٢ رقم ١٨٢٦٣، ودلائل النبوة للبيهقي ٤/ ٣١-٣٢، وقال الشيخ الصوياني: سنده صحيح. الصحيح من أحاديث السيرة النبوية ص ٣٣٥].

وقَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمَّ إِنَّ ثَعْلَبَةَ بْنَ سَعْيَةَ، وَأُسَيْدَ بْنَ سَعْيَةَ، وَأَسَدَ بْنَ عُبَيْدٍ، وَهُمْ نَفَرٌ مِنْ بَنِي هَدَلٍ لَيْسُوا مِنْ بَنِي قُرَيْظَةَ وَلَا النَّضِيرِ، نَسَبُهُمْ فَوْقَ ذَلِكَ، هُمْ بَنُو عَمِّ الْقَوْمِ، أَسْلَمُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهَا بَنُو قُرَيْظَةَ عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٣٨].

وروى الواقدي بسنده عَنْ ثَعْلَبَةَ بْنِ أَبِي مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ ثَعْلَبَةُ وأُسَيْدُ ابْنَا سَعِيَّةَ، وَأَسَدُ بْنُ عُبَيْدٍ عَمِّهِمْ: **يَا مَعْشَرَ بَنِي قُرَيْظَةَ، وَاللهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللهِ، وَأَنَّ صِفَتَهُ عِنْدَنَا، حَدَّثَنَا بِهَا عُلَمَاؤُنَا**

وَعُلَمَاءُ بَنِي النَّضِيرِ، هَذَا أَوَّلُهُمْ - يَعْنِي حُيَيَّ بْنَ أَخْطَبَ - مَعَ جُبَيْرِ بْنِ الـهَيْبَانِ أَصْدَقُ النَّاسِ عِنْدَنَا، هُوَ خَبَّرَنَا بِصِفَتِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ.

قَالُوا: لا نُفَارِقُ التَّوْرَاةَ.

فَلَـمَّا رَأَى هَؤُلاءِ النَّفَرُ إِبَاءَهُمْ نَزَلُوا فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي فِي صُبْحِهَا نَزَلَتْ قُرَيْظَةُ، فَأَسْلَمُوا فَأَمِنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَهْلِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٣].

التهديد باقتحام حصون اليهود والنزول على حكم سعد ﷺ:

يقول أ/ باشميل: «ومع شدة الجزع والانهيار الكلي الذي عم حملة السلاح من اليهود فقد ظلوا يماطلون في التسليم في انتظار معجزة خارقة تتدخل لإنقاذهم من وحل الورطة الخانقة، ولكن هيهات، فالمسلمون لما رأوا مماطلة اليهود في التسليم - مع الانهيار الذي لاحظوه عليهم - أرهبوهم إرهابًا شديدًا إذ أعلنوا أنهم سيقتحمون الحصون ويفتحونها بحد السيف.

لقد كان المسلمون دونما شك يفضلون أن يتم استسلام بني قريظة دونما قتال؛ ولهذا ظلوا - على ما هم فيه من تعب وجوع - يحاصرونهم أكثر من عشرين ليلة.

ولكنهم لما رأوا مماطلتهم في الاستسلام، ورأوا أن بقاء القوات الإسلامية مرابطة في العراء هكذا حول الحصون في ذلك البرد القارس مع قلة المواد الضرورية، مما يعود بالضرر الكبير على القوات الإسلامية المحاصرة وقد يعود بالفائدة على اليهود، قرروا اقتحام الحصون المغلقة وفتحها مهما كان الثمن». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٧٨].

قَالَ ابْنُ هِشَامٍ: حَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ أَثِقُ بِهِ مِنْ أَهْلِ العِلمِ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ﷺ صَاحَ وَهُمْ مُحَاصِرُو بَنِي قُرَيْظَةَ: **يَا كَتِيبَةَ الإِيمَانِ**، وَتَقَدَّمَ هُوَ وَالزُّبَيْرُ بْنُ العَوَّامِ ﷺ، وَقَالَ: **وَاللهِ لَأَذُوقَنَّ مَا ذَاقَ حَمْزَةُ أَوْ لَأَفْتَحَنَّ حِصْنَهُمْ**، فَقَالُوا: **يَا مُحَمَّدُ نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ**». [السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٢٤٠].

يقول د/ هيكل: «فاختار اليهود سعد بن معاذ ﷺ، وكأنما أعماهم القدر عما كتب لهم في لوح حظهم، فأنساهم مقدم سعد ﷺ إليهم أول نقضهم عهدهم، وتحذيره إياهم، ووقوعهم في محمد ﷺ أمامه، وسبهم المسلمين بغير حق». [حياة محمد ﷺ لهيكل ٣٤٩].

ويقول الشيخ الغزالي: «وكان سعد ﷺ سيد الأوس، وهم حلفاء قريظة في الجاهلية، وقد توقع يهود أن هذه الصلة تنفعهم، وتوقع الأوس أيضًا من رجلهم أن يتساهل مع أصدقائهم الأقدمين، فلما استقدمه الرسول ﷺ ليصدر حكمه، جاء من الخيمة التي يمرَّض فيها إثر إصابته بسهام الأحزاب، واكتنفه قومه يقولون له: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك...

لكن سعدًا ﷺ لم ينس - في ضجيج الرجاء الموجه إليه - أن الإسلام وأبناءه، والمدينة وثمارها وحرثها ونسلها وحرماتها، لم تنج من وطأة الأحزاب الهاجمين إلا بأعجوبة خارقة، وأن بني قريظة

هؤلاء ومن آووهم، كانوا المحرِّضين والشركاء المقبوحين في هذه الحرب التي أُعلنت لاستئصال التوحيد الحق واجتياح أهله.

ولم ينس سعد ﷺ كيف نقضت قريظة عهدها، واستقبلته بالألفاظ البذيئة عندما ذهب يناشدهم الوفاء! ألم يقل لهم يومئذ: **إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ بَنِي النَّضِيرِ**، فكان ردهم عليه: **أَكَلتَ أَيَرَ أَبِيكَ!**

لذلك ما لبث سعد ﷺ أن صاح بقومه ـ وقد أكثروا عليه الرجاء ـ: **لَقَدْ آنَ لِسَعْدٍ أَنْ لَا تَأْخُذَهُ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ**. [فقه السيرة للغزالي ٣٢٥-٣٢٦].

استسلام اليهود وانتهاء الحصار:

ويقول أ/ باشميل: «وبعد هذا الإنذار الذي سمعه اليهود من حامل لواء الجيش علي بن أبي طالب ﷺ، تحركت قطاعات الجيش الإسلامي وتأهبت للهجوم العام، واقتحام الحصون كلها في هجوم كاسح.

ولكن اليهود ـ وهذا الذي كانت تتوقعه القيادة الإسلامية منهم ـ لما رأوا كتائب الجيش الإسلامي تتحرك، وأيقنوا أن الهجوم على حصونهم أمر لا مفر منه، طلبوا إيقاف الهجوم، وأعلنوا الاستسلام والنزول على حكم الرسول ﷺ دونما قيد أو شرط.

فأوقف المسلمون الهجوم، وسارع اليهود إلى فتح أبواب معاقلهم وحصونهم فورًا، بعد أن ألقوا سلاحهم وأخذوا في مغادرة الحصون مستسلمين.

فابتدرهم جند الإسلام لحراستهم وصاروا يجمعونهم منعزلين في ناحية، وبعد أن تكامل خروجهم من الحصون ـ رجالًا ونساء وأطفالًا ـ أمر النبي القائد ﷺ باعتقال الرجال ووضع القيود في أيديهم، وقد تم ذلك تحت إشراف الرئيس محمد بن مسلمة الأنصاري ﷺ قائد الحرس النبوي.

أما النساء والذراري، فقد أمر النبي ﷺ بعزلهم عن الرجال البالغين فجعلوا ناحية، بعد أن أوكل أمرهم إلى عبد الله بن سلام ﷺ.

وبعد أن تمت عملية الاستسلام أمر النبي ﷺ أن يوضع الرجال في حبس خاص بهم.

أما النساء والذراري فقد أمر ﷺ أن يُحفظوا في كل مكان ليس فيه صفة الحبس والتضييق.

وقد حُبس الرجال من بني قريظة ـ وعددهم حوالي ثمانمائة مقاتل ـ في دار أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

أما النساء والأطفال، فقد أعدت لهم القيادة النبوية دارًا، ينزلون فيها ليست لها صفة السجن، إذ أمر النبي القائد ﷺ بإنزالهم في دار الضيافة، وهي دار ابنة الحارث النجارية المعدة دائمًا لنزول الوفود التي تقصد المدينة، وكان عدد هؤلاء النساء والذراري يناهز الألف». [غزوة بني قريظة لباشميل ١٧٨-١٧٩].

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: ... فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَاصَرَهُمْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، فَلَمَّا اشْتَدَّ حَصْرُهُمْ وَاشْتَدَّ البَلَاءُ [عَلَيْهِمْ] قِيلَ لَهُمْ: انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَاسْتَشَارُوا أَبَا لُبَابَةَ بْنَ عَبْدِ

الْمُنْذِرِ، فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ أَنَّهُ الذَّبْحُ، قَالُوا: نَنْزِلُ عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «انْزِلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ»، فَنَزَلُوا. [مسند أحمد ٤٢/ ٢٦ عن عائشة ﵂ رقم ٢٥٠٩٧، وقال الشيخ الأرناؤوط: بعضه صحيح، وجزء منه حسن وهذا إسناد فيه ضعف عمرو بن علقمة لم يرو عنه غير ابنه محمد، مجمع الزوائد ٦/ ١٩٩-٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٥)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه، رواه أحمد وفيه محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث، وبقية رجاله ثقات، والمصنف لابن أبي شيبة ٢٠/ ٣٦٨-٣٧١ في المغازي (٣٧٩٥١)].

وعَنْ عُرْوَةَ ـ يعني ابن الزبير ـ قَالَ: وَأَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى بني قُرَيْظَةَ حَتَّى سَأَلُوهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ حَكَمًا يَنْزِلُونَ عَلَى حُكْمِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اخْتَارُوا مِنْ أَصْحَابِي مَنْ أَرَدْتُمْ، فَلْنَسْتَمِعْ لِقَوْلِهِ»، فَاخْتَارُوا سَعْدَ بن مُعَاذٍ ﵁، فَرَضِيَ بِهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَسَلَّمُوا، وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَسْلِحَتِهِمْ، فَجُعِلَتْ فِي بَيْتٍ، وَأَمَرَ بِهِمْ فَكُتِّفُوا، وَأُوثِقُوا، فَجُعِلُوا فِي دَارِ أُسَامَةَ بن زَيْدٍ ﵄.

[مجمع الزوائد ٦/ ٢٠١ في المغازي والسير (١٠١٥٦)، وقال الهيثمي: قلت: في الصحيح بعضه عن عائشة ﵂ متصل الإسناد، رواه الطبراني [المعجم الكبير ٦/ ٧٠٨٥ رقم ٥٣٢٧] مرسلًا وفيه ابن لهيعة وحديثه حسن وفيه ضعف. وقال محقق المعجم الكبير: قلت: وهذا من الضعيف].

وقال الواقدي: قَالُوا: وَلَمَّا جَهَدَهُمْ الحِصَارُ وَنَزَلُوا عَلَى حُكْمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَسْرَاهُمْ فَكُتِّفُوا رِبَاطًا، وَجُعِلَ عَلَى كِتَافِهِمْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ ﵁ وَنُحُّوا نَاحِيَةً، وَأَخْرَجُوا النِّسَاءَ وَالذُّرِّيَّةَ مِنَ الحُصُونِ فَكَانُوا نَاحِيَةً.

وَاسْتَعْمَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَبْدَ اللهِ بْنَ سَلامٍ ﵁، وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِجَمْعِ أَمْتِعَتِهِمْ وَمَا وُجِدَ فِي حُصُونِهِمْ مِنْ الحَلَقَةِ وَالأَثَاثِ وَالثِّيَابِ. [المغازي للواقدي ٢/ ٥٠٩-٥١٠].